زيـــد الشهيد
قاتل أبيه
رواية
رواية
زيـــد الشهيد
قاتل أبيه

زيد الشهيد

قاتل أبيه

رواية

2024

بطاقة الفهرسة

813 / 90563

ش 994 الشهيد، زيد

قاتل أبيه / زيد الشهيد

بغداد : منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق، 2024.

156 ص : 21× 14 سم

- القصص العربية / العراق

رقم الإيداع

2024 / 3257

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

الطبعة الأولى 2024

رقم الايداع (3257) في دار الكتب والوثائق ببغداد لسنة 2024

ISBN: 978-9922-728-93-3

اصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق - بغداد

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، حسب قوانين الملكية الفكرية لعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب ورقيا أو رقميا إلا بإذن خطي من الناشر.

Published by The Union of Iraqi Writers
Baghdad - Iraq

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher. This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

التصميم: نصير لازم

لوحة الغلاف للفنان زياد جسام

Design by: Naseer Lazim

منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

لا أملكُ قناعاتٍ كما يَفهمُها أَهلُ عصري،

لأنّي لا أَملكُ طُموحَاً

لا توجدُ داخلي قَناعَةٌ لأيَّةِ قاعِدة.

بودلير- اليوميات

القسم الأول

(1)

وحالاتُ الزّمانِ عليكَ شتّى

وحالُكَ واحِدٌ في كلِّ حالِ

المتنبّي

الشّجن صوتُ الناي

هروباً من ضغوطاتِ النهارِ والأخبار المأساوية التي تنقلها الفضائيات وهي تصوِّر العنفَ والقتلَ والدمارَ وأخبارَ ارهابِ داعش والعائلاتِ المُهجَّرة (وشعورا بأنّي أنا ساجد روضان قد أرحل، في غضونِ أيامٍ معدودات مقرونة بالمفاجأة، رحيلاً نهائياً وإنْ كنتُ لم أبلغ الثلاثين) اتَّخَذْتُ شارعَ كورنيش القشلة مَساراً لي في هذا الوقت المتأخر من الليل... في دواخلي رغبةُ اصدارِ كتابٍ أقرأ أسمَي على غلافه، ويطالع القرّاء سردَه، ولا أدري إنْ كنتُ سأوفَّق في مشروعي أم سيكون مآلي الفشل لحظة يباغتني المختلسُ الجاني.. فالمشاريعُ لا تتوقف في ذهن الانسان، والانسانُ جُبِلَ على التفكير في أعمالٍ بمثابة مشاريع.

دخلتُ الشارع بعدما خرجت من البيت تاركاً على منضدةِ غرفتي رواية "الخلود" لميلان كونديرا التي وصلتُ في مطالعتها الى الصفحة الثالثة والخمسين مُمنيّاً النفس في كتابةِ أعمالٍ خالدة كالتي كتبها ويكتبها هذا الروائي الذي أتّفق برأيِّ مع أراء نقاد وكتاب عالميين رأوا فيه روائياً مُفكِّراً يحكي رواياته بثقافةٍ معرفيةٍ واسعة، يدخل فيها النقدُ والتحليل، اعتماداً على تجارب نابعة من خضمّ حياته المزدحمة بالمعاناة وتلقّي الجور من سلطات بلاده وهي تنظر إليه على أنَّه متمردٌ مرتد بينما هو ينظر الى نفسه مُحقّاً في أفكاره ومنتصراً حتماً؛ يردِّد قول بودلير الذي يحبه كثيراً: " لنْ يكون الرجلُ عظيماً إلا اذا انتصرَ على أمته جمعاء."

جئتُ عابراً من الصوب الكبير على الجسر الحديدي الذي يطلق هديره الفولاذي كلما مرَّت على ظهرِه عربةٌ وافشت أنْ ثمة فراغاً بعيداً بين سقفه ومستوى الفرات الذي تراجعت مياهه فانحسر، فنضب، فضَحل؛ حتى بات ساقية لا غير.

جسرٌ أقيم غب انهيار الجسر الرئيسي الشامخ للمدينة بفعل ضربات صاروخية اطلقتها عليه طائرات التحالف بشكل دفعات إبان حرب الخليج الأولى عام 1991.

لحظاتُ اقتراب الليل من منتصفه مؤكَّداً تُثير، في مَن يراني، سؤالَ إلى أين أسير، وما هذا الحضور غير المعهود مني الى مكان يبدو في هذا الوقت موحِشاً (الأمكنةُ الموحشة باعثةٌ على التطيّر، صانعةٌ غيوم الهواجس.. الوحشةُ تُرعب المتهجسين) حيث تشرع أضواء الكازينوهات ومصابيح البيوت المُطلة على النهر بالابتعاد فيأخذ الظلامُ دورَ الهيمنةِ والتسيّد؛ ويغدو ذلك المكان العاج باللعب والمرح (سباحةً في النهر أو لعباً بكرة القدم

والكرة الطائرة على نديف الشريط الرملي) ساعات النهار وهدةً يعمُّها السكون والصمت المخيف.

سمعَتُ صوتَ نايٍ قادماً من جوفِ تلك الوهدة المتمثلة أمامي كهيولي مطلق.

صوتٌ فيه من الشجن ما دفعني للتوقُّف متخيلاً أنّني في حلم (إنَّ القلبَ ليتوجَّع للشجن، والوجع يُقرِّب الموتَ ويُبعد القلبَ عن تحقيق مشروعه الوحيد).. شبّه لي أنَّ من يلمحني اللحظة يَعدني من الحالمين الذين يمشون في منامِهم، سائرين بلا هدى (متى كان الحالمون يسيرون على هدى؟!).

صوتُ الناي الشجي أربك منظومةَ رغبةِ ترجُّلٍ ارتأيتها تمنحني سكينةً يفتقدها كلُّ مَن حُرم من لذَّة الهدوء وسط جنون يومي لحياة لا تطاق لذوي النفوس النبيلة (أولئكَ التائقين للهناء والعيش كما يشتهون لا كما تشتهيه الأقدار).

تصوَّرَتُ صوت الناي يدعوني ضمن دعوته لمخلوقات الليل أخذَ دورِها في مشاركته كي تعيش بعيداً عن ضغائنِ البشر وديدنِهم في التصارعِ والاقتتال.. بشرٌ يُدركون ، وبتمادٍ، أنَّ رحلتهم الدنيوية نهايتها الموتُ القَهّار... موتٌ يسحقُ عدوانيتَهم ويمحق اندفاعاتهم بالاستحواذ على كلِّ ما يجدونه يكّرِس جبروتَهم، ويحقق لهم كبرياءً يظنونه سرمدياً فاذا هُم متقهقرون خاسرون(ومع كل ذلك يستمرون في التمادي).

اعلمتني ابتداءات عتمة دخلتها بسماء تشبه عباءة سوداء فاحمة لولا النجوم المتلألئة تسفح نوراً يشي بصنع مشاعر فيها رومانسية تجعل الناظر اليها يستدعي الابتهاج (مِن أينَ تأتي البهجةُ وأنا مقرونٌ بقلبٍ عليل!) كي يقول بضعَ كلماتٍ تنسجُ شعراً؛ يتمنّى حبيباً يحضر ليرفلا على خميلةِ الوداد ويتحاورا بلسانِ العشق العسلي، ويقول ما قاله قيس بن الملوَّح يوماً لليلى: " **ولو كنتِ ليلاً كنتِ ليلَ تواصلٍ// ولو كنتِ نجماً كنتِ بدرَ الدُّجى يَسري**"، فسيقول هو إنَّ هذا الليل قاموسٌ ثرٌّ، مِن مدِّ فيضِه سأملأ الاوراقَ بما يجعل قرّائي في المستقبل يعشقونه فيفضلونه على النهار.. سأجعلُهم يحبُّون سَحَره لأنه يلهمهم طيبَ الحديث مع الأقران والأحبة.. سأتركهم يرفلون على وثير سكونه ليدخلوا بهاءَ الهمس العذيب، ويوشوشوا بحروفٍ تتفجّر نوراً يمنحهم دنيا عالم خرافي ساحر.. سيحاورون قمرَه فيطالبونه بلغةِ التضرّع منحَهم من فضته ما يزيّن نظراتِهم بدفيق التألق، وأنْ يَحنْو عليهم بتوهّجٍ يجعلهم يسيرون أزواجاً وجماعات كأنهم في رحلةِ حجٍّ لبيتِ العشق الازلي وطوافٍ بأرديةِ النقاءِ حولَ كعبةِ الحبّ الذي لا ينضب.

على يميني تمثَّلت بساتين الخزاعل تنام متدثرةً بظلامٍ ثقيل كأنَّها في همودٍ أزلي لا تنهض منه ولا تستقبل شمسَ النهار القادم كما هي العادة الخالدة (إنَّ البساتين حزامُ المدينة.. نخلُها جيوشٌ من فتيات سمر ألهمنَ الشعراء فراح أحد المتيمين منهم يعرض لوعته على لسان هاتيك النخيل، ويقول علَّته بما يشبه الشجن الأبدي أو المعلَّقة الرثائية: **سعف وكرب ظليت/ ما بيَّ ثمرة**.).. أمّا على شمالي فشريط الرمل يحاذي الفرات المسترسل، الراغب بالليل يمنحه ساعات هدوء تجافي الأضواءَ الماطرَةَ عليه من نشراتِ كازينوهات الضِّفة الثانية الضوئية حيث مُعظَم الروّاد، عادةً ما، يستأنسون بلعب

الدومينو والطاولي فيما القلّة منهم يجيئون للاستمتاع بهدوءٍ ليلي ودردشةٍ تخفّف من غلواءِ أسىً تأتي به أخبارُ الاقتتال اليومي والدم المُراق.

هناك جمعٌ صبية يلاحقون قِططاً تسلّقت جدران دائرة رئاسة صحة المدينة هاربة يطاردونها بالأحجار، سعداء بما يفعلون؛ يضحكون ويكركرون. يكركرون ويتبارون في اعلان مَن صوَّبَ فأصاب، ومَن رمى فأخطأ.

وهناك، تحت مصباح أصفر يسفح نوراً كابياً من عمود كهربائي مائل، ثلاثةُ فتيةٍ مراهقين بدشاديش ثلجية بلا ياقات يتبارون على مشاهدة صور اباحية صار من اليسر في هذا الايام سحبها من مواقع الشبكة العنكبوتية التي أباحت كلَّ شيء؛ تفضحهم مطالعتهم المارّة بحذر، وخشية أنْ يُضبَطوا من قبل أحد افراد أسرهم بمشهد يثير الريبة كهذا.

رغبتُ في مواصلة السير والنزول الى الشريط الرملي؛ إلى مصدر صوت الناي.. صوتُ الناي ذَكّرني بقصص قرأتها لكاتب اسمه زيد الشهيد في ثقافية احدى الصحف المحلية بطلُها ناي يتدفَّقُ بنواحه في منتصفات الليالي فتهرع امرأة خمسينية تاركة بيتها وزوجها واولادها آخذة درباً تسلكه يومياً، غير آبهة بما سيحصل لها والليل في انتصافه والشوارع تعرُض الفراغَ، فتسلك شريطاً رملياً يجاور النهر. هناك تروح تلتقي شبحَ فتى أحبته قبل خمساً وعشرين عاماً تجنّى مرض السرطان اللعين على أكلِ حنجرته فاستعاض بالناي يحاورها به؛ ولم يعمِّر طويلاً فمات ولمّا يبلغ الخامسة والعشرين. فبقيت هي أمينةً على حبّها له مواظبةً على المجيء كلَّ ليلةٍ إلى مكانٍ لقائِهما، ولم تُعِرْ همّاً للأعوام التي تراكمت فواصلت تهافتَها فبلغت خمساً وعشرين عاماً فوقها؛ وكانت مصمِّمة على المواظبة حتى آخر يومٍ من عمرها.. كان الناي وسيطاً أزلياً بينهما. تسمعه، سواءَ حقيقةً أو تخيلّاً، فتنهض، فتخرج، فتذهب الى حيث كانا يلتقيان.

ثمّةَ هاجسٌ أيقظ فيَّ صوت الحذر والخشية من الوقوع في فخٍّ قاتلٍ وسطَ عتمةٍ تمحو أيَّ اثرٍ لمقتلي، وآنها سأُرمى باللوم.. مَن سيتفهم أمري لو قيل أنَّ مسعاي كان إدراك العازف واطلاق كلمات الثناء على عزفه. لذا توقَّفَتُ مستبدلاً الرغبة بالوصول الى ضرورة العودة من حيث أتيت.

فعدتُ.

عدتُ وصوتُ الناي يواصل شجنه، أو يقول نواحه.. وقد يكون يبكي فيسكب الدموع على خدِّ النهر..(دوماً هي الأنهار على استعداد للإنصات لقصِّ حزنِ انسانٍ؛ يجيء ليبكي ويبوح، وآخر يتأمل بعينين يغمرهما الذهول، وآخر يفضل الصمت بينما دواخله تعربد بالشكوى، وآخر يستعيض عن اللسان بناي وسيلةً للتعبير عن ألمه؛ صوتاً بلا كلمات، شَجواً بلا محاورة).

إنَّ الآلامَ لتعظُم حين الشعور بالحزن؛ وإنَّها لتتفاقم هَولاً حين لا يُستَمَع إليها، ولا يُعمَل على تطبيب الجراح.

ولكن !

مَن يقول إنَّ عازفَ الناي جريح؟.. قد يعزف لغرض الاستمتاع بآلةٍ موسيقية يسعى لأنْ يكون عازفاً في فرقةٍ ما يضعها هدفاً للوصول؛ وإنَّ ما يؤدّيه ما هو الا تمرين لإتقان استخدام آلته، شعوراً منه أنْ سيلقى رضا قائد فرقته، وربما دهشته لعزفٍ لا نشاز فيه يقتل عذوبةَ الآلة في التعبير، ولا انحراف لمقامٍ يُرِيك منظومةَ شغف المُستمِع؟

أعادني الممرُّ الرملي الذي اتخذته إلى الشارع المُعبَّد.

وقفتُ على الرصيف بمواجهة مصابيح رئاسة صحة المدينة.

في القلب رغبةٌ لإدراكِ مَكمن العزف والتعرّف على العازف مُقابل ردّ فعلٍ موضوعي يقتضي تركَ الأمر والتحلّي بالعقلانية.

لم تكن هناك قهقهة للصغار ولا عودة للقطط.. لم أشاهد الفتية المراهقين وهم يتكورون لمتابعة لغةِ الجسد وفعلِ الغواية، بل لمحتهم بدشاديشهم الفضفاضة وصنادلهم التي تحك الاسفلت يمرّون بمحاذاة سيارة شرطة نجدة متوقفة على مقربة من مدينة ألعاب تطل على النهر.

تركتُ بساتين الخزاعل ورائي.. تركتُها تنام في كَنَف العُتمة بينما واصل الناي يسفح دمَه صوتاً دامِعاً ، والعازف يقول سيمفونية الشجن.

حدسَ القلب: " إنَّه ليس عازفاً عادياً ؛ ولا انساناً كسائر الناس."

" هذا من قلائل الخُلاّق!

إنَّ الدنيا لتقسو على المتميزين الأفذاذ، لكنَّ الزَّمنَ مُنصفٌ وقور، والتاريخ لن يطعنهم... يوماً ما سينصفهم."... تمتمَتُ ، مُتَّفقاً مع حدس قلبي... تمتمتُ وصورة فيكتور هيـگو وهو يطالعُ مصورَّةٌ بعين الحزن تتمثَّل إزاءي. (يومها كان هيـگو منفياً يتلقى قسوة نابليون الثالث؛ والوحدة التي أُريدَ لها أنْ تحاربه منحته التأمل، وأرته أنَّ العِظام على الدوام يلاقون العسَف ويتلقَّون الجَور، لكنَّهم يُنصَفون يوماً ما وإنْ كانَ بعيداً... ولقد مات نابليون تلاحقه لعنات المظلومين ويذكره التاريخ باستهجان مُريع فيما صار هيـگو نجماً وضّاءً تلاحق توهجَه الأجيالُ تلو الاجيال لتتلقّى نسائمَ المتعة من قلبِه الذي صار بكبرِ الأرض يغدق على البشر مطرَ خلقِه ويفعمُهم بجنان أحلام وحدائق ابداعٍ تينَع على مرِّ العصور.)

العودةُ الى البيت، والتوجّه لمواصلة مطالعةِ رواية كونديرا لم يمنعا شغفي لسماع صوت الناي؛ ولم يبعدا عني رغبةَ الذهاب في الليلة التالية مشفوعاً بأملِ سماع الصوت وصاحبه يعلنان حضورهما؛ فيفعمني شعور أنَّ الحضورَ يوميٌّ، والعزف عادة ليلية، والشجن تتكرر سنواتُه مع تكرر ألمِ العازف.

***

نهارُ اليوم التالي كان كسابقاته من النهارات، ثقيلاً، وبطيئاً، ومحمَّلاً بالمفاجآت.

زحمةُ العمل، وانهماكُ الناس فيه ديدنٌ يومي لا يتوقّف.

" إنّا لَفي مَقبرةٍ كبيرةٍ اسمُها المدينة ".. تردَّدَ هذا القول في مسمعي. لا أعرف لمن قرأتُ هذا الكلام، ولا متى قاله، وفي أي ظرفٍ اطلق تشاؤمه هذا.. لعلّه ستندال أو سرفانتس أو تولستوي أو أحد روّاد تيار العبث الخارج من أوار الحربين العالميتين الأولى والثانية وقد أكلت طموحاته والتهمت جُلَّ الرجاءات. وقد أكون قلتها أنا؛ ولا أدري متى، وكيف، ولماذا.

لا أدري... يبدو أنّها جملةٌ قاسيةُ المَعنى، ثقيلةُ المَسمَع!

بعدَ ساعات...

وبانتظارٍ ثقيل حصلَتْ على الليل بعد انتهاء النهار. والنهار في شهر آب لهّاب ومتوهج ولا يُطاق؛ والمدينة كديدنِها اليومي ينتابها الزحامُ؛ وحركةُ الناس لا تنتهي جراء ازدياد السكان وبقاء الشوارع ضيقة، بأرصفةٍ حسيرة. مدينة تشكو الفوضى اللا خلاقة، تُرمى على وجهها شتى انواع المُخلّفات وهي صاغرةٌ لقدرِها.

مررتُ من أمام الكازينوهات المتلاحقة، وقطعتُ ارصفةً عريضةً محتلّةً وقد توزعت عليها المناضد والكراسي فأصبحت مقاه واكشاك تبيع الفلافل وخليط الباذنجان والبطاطا مع الصاص والعمبة والمخللات. ثم أخذتُ الطريق، وسط شدَهٍ وتلاطمِ أفكارٍ وتياراتِ قلقٍ في أنْ لا أسمع صوتاً للناي فأعود فاشلاً مُحبطاً.

عبرتُ الجسر الحديدي مستأنساً لنسمات شُبه باردة منتقلّاً من الصوب الكبير الى القشلة.. كانت هناك الاضاءة الصارخة المحيطة بلافتة رئاسة صحة المدينة، وسيارة دورية شرطة النجدة تقف على مقربة من المتنزه المحاذي للنهر، وعائلات تدخل كازينوهات مخصصة لها وأخرى تخرج فتّتجه الى سيارات صالون تدخلها، وتتحرك، وتبتعد.

اتَّخذَتُ الطريق شمالاً فأصبحت بساتين الخزاعل قبالتي، أرجو وأتمنى وأتضرع ان أسمع، مثلما سمعتُ بالأمس، صوت الناي.. وإذا كان مجيئي بالأمس مصادفةً فانَّ حضورَي هذه الليلة أتى بإصرارٍ وأمل.

ما أن خطوتُ عدة خطوات، ودخلتُ عتمة حالكة، وراودني شعور أنَّها نفسُ أجواءِ الليلة الفائتة حتى نقلت لي نسائمٌ منسابة جاءت من حافة النهر مُحمَّلة بصوت نواح. خُيل لي أنَّه نواح امرأة ثكلى قتلوا حبيبها غيلة فانطلقت تندبه كفاختة.

إنَّه نواح ناي الأمس، يتعالى قليلاً ويخفت قليلاً؛ تسببه الانسام الهابة تارةً، وتارةً أخرى يحصل ذلك تبعاً لنَفَس العازف الذي يطلق روحه كدفقة ريح في جوف الناي فيأتي النواح بكاء مرّاً، تنسحق الروح برحى الألم فيأتي الصوتُ بما يشبه البحّة.

نعم! أسمعُ بكاءً، مَصحوباً بنشيج.

اسمع روحاً تئنُّ، وقلباً يتوجَّع.

اندفعتُ الى الشريط الرملي، غرزت قدميَّ في الرمل ولم آبه لذراته التي اقتحمت المنافذ المتاحة من حذائي الجلدي وأشعرني بألم في باطنهما.

سأصل اليه!.. لابدَّ أن أصل.

قطعتُ امتاراً وسط دوّامة صوتية وناي استحوذ عليَّ، فأحدثَ شجناً ممزوجاً برهبة.

وكالمرّة السابقة انتابتني حالةُ الجُبن فقررتُ العودة بعدما خطفت مِن أمام وجهي بومةٌ بعينين لاصفتين، خارجة من أكمّة جانبية، خفقت بجناحيها واتجهت صوب عتمة البساتين المتاخمة لضفة النهر البعيدة فاضطررت للتوقف قَلِقاً، مرتعِباً.. تراجعت وكنتُ أنوي مواصلة السير، استعانةً بما تسفحه النجوم من ضوء، وتفادي حُفَر يُحدثُها صبية يأتون الى شاطىء النهر الرملي عصراً للسباحة واللعب والاستمتاع.

عدتُ الى الشارع المُعبَّد كما بالأمس... رغبة في استكناه، ثم تردد، ثم خوف، ثم مبارحة صوت الناي.

قبل الوصول الى الجسر الحديدي انتبهتُ إلى شاب عشريني العمر، خرج من قلب العتمة البعيدة يتلوى، حسبته مَريضاً، فتوقفتُ لأسأله إنْ كان بحاجةٍ لمساعدة. كان الشارعُ خالياً من المارّة والعائلات التي شاهدتها تنعم بوقت مستقطع من زمنِ اليوم المليء بالأحداث الجِّسام شرعت تخرج من المتنزه، والأطفال المصاحبون لأهليهم تركوا الأراجيح والمزحلقات ودولاب الهواء على مضض.

وجدَتُ الشاب ثَمِلاً.

" حسبتك مريضاً فاقتربت حتى اساعدك." .. نطقتُ بشيءٍ من الود والتعاطف.

توقف؛ محاولاً تثبيت قدميه على الأرض والوقوف بقامة منتصبة:

" ذهبَ المرض ، وحلّت اللعنة."

" ماذا؟!.... ما قلت ؟!"

" ها !.. ما قلت شيء.. من أين جئت؟ "

" من الشاطئ الرملي.. سحبني صوت ناي.. أتسمعه؟ "

خطا متمايلاً بعدما رمقني بنظرةٍ متفحِّصة، ثم واصل سيره صوب الجسر الحديدي قصدَ العبور إلى الجانب الآخر.

تبعته، وبي رغبة في مساعدته لئلا يتكيء على افريز الجسر فيتطوّح ويسقط في النهر، ويغرق.

" ما تسمع؟.. الصوت الآن اوضح أكثر، من هنا، من وسط الجسر.".. رفعتُ صوتي أخاطبه.

" أنتَ سكران.. ما اسمع أي صوت غير صوتك."، قال؛ وتوقفَ محاولاً الثبات لكنَّ قسمَه العلوي استمر يتمايل (أكان يتكلّف أم ثقلُ الخمرةِ أحدثَ كلَّ هذا القدر من الثمالة ؟).

" صوت ناي حزين.".. قلت.

قلت ذلك لحظة مرور عائلة (رجلٌ وزوجته يصاحبهما ولدان دون العاشرة وبنت بعمر ثلاث عشرة) كانوا يعبرون الجسر مشياً. توقف الجميع عند منتصف الجسر وشرعوا جميعهم ينصتون للصوت، ووجوههم تتبادل نظرات الاعجاب لما يسمعون.

لم يُعر الشابُ المخمور نظراً للعائلة التي توقفت قليلاً ثم اجتازته في مواصلة عبور الجسر.

" ما اسمع صوت ناي.. أنتَ تتوهَّم."

" كيف أتوهم ؟!.. هذي العائلة كلُّها وقفت تستمع... تجي معي لنعرف مَن يعزف ؟ "

" لا.. أنت خذ راحتك، واصل طريقك يا حِشَري؛ أما أنا فيعجبني المشي على راحتي.".. قالها بلا مبالاة.. واندفع عابراً الجسر.

كلمة " حِشَري " المُستفزَّة التي فاه بها جعلتني أُفضِّل عدمَ اغاظته خِشيةَ ارتكاب فِعلٍ يسيء لي. وقتها سألوم نفسي لأنّي حشرتها فعلاً مع شخص قد لا يعنيه الناي ولا من يعزف به.. ومع هذا تساءلت مع نفسي: كيف ينكر سماعَ آلةٍ هي من اكثر الآلات الموسيقية اثارة لشجن السكارى وجعلِهم يبكونَ لحبيبٍ هجرَهم، أو عزيز افتقدوا رحيله الأبدي؟!

ما أنْ انتهى من قطعِ الجسر وأوشك على الاستدارة شمالاً سيراً بمحاذاة الكازينوهات المشتعلة بالأضواء حتى سمعت قهقهته:

" كذبت عليييييييييييييك.. كنتُ قرب العازف. كل ليلة اقعد على صخرة دون أن يراني؛ استمع له وأبكي.. أبكي وأشرب."

" تعرفه؟ "

" ومَن لا يعرفُه ؟ "

" أنا ما أعرفه ؟ .. مَن هوَّ ؟ "

" يقولون عنه قاتل ابيه."

" ماذا ؟! "

تلك اللحظة كانت مصابيحُ السيارات المارّة تختلط مع انارةِ مصابيح الشارع وسط حركة مرور بشرية ضئيلة، وليل يعلن هيمنته، وشرطة مرور لا وجود لهم.

حثّثتُ القدمين سراعاً وجملة " قاتل أبيه " تُحدِث صدىً فتجعلني أرتعد، فأعدو عائداً هلِعاً، راجفاً، مرتعِشاً.

(2)

يَخطو وهو يَعرج

الحياةُ قَدر .. وما قَدرُنا إلّا حياةٌ.

حياةٌ قُيّضَ لنا أنْ نحياها واضعين في الحسبان أنَّنا محكومون وفق قانون هذا القدر الذي يأخذ بنا على غيرِ هوانا، على غيرِ الرغبة المتناسلة في نفوسنا إنَّما يتحكَّم بنا فنخضع لمشيئته وإنْ لم يعنينا ما يريد.

من هذا التصوُّر وتلك المُحصِّلة فعلَ القدرُ فعلَته بجلوسي ذلكَ المساء في مقهى فايق أحدِّق بالجالس (ستكون حياةُ الجالس قدري، ومنجزي الكتابي، وحبكتي التي أرجوها موفقة) في التخت الطارف عند الزاوية التي يشكّلّها ساتران من قماش كتّان وردي تقطعهُ أفقيّاً خطوط رمادية وبرتقالية عريضة بينما الروّاد منهمكون بالاحاديث الثنائية أو الجماعية دون أنْ يلفت انتباههم انعزاله وهزاله ورتابة ملبس يتمثل بقميص سمائي حائل(في جيبه قلم سوفت وحافة ظرف رسالة ازرق) وبنطلون رصاصي وحذاء صندل ترابي اللون وعمر يتعدى الخمسين بقليل. حضورُه اليومي إلى المقهى قد يكون السبب في جعلِهم لا يولوه اهتماماً. فالاهتمامُ والفضولُ عادةً ما يحصلا عندما تنوجدُ ثمَّة غَرابة في أمرٍ ما. حتى إذا تكشَّفت الاسرارُ وتمَّ الاطلاع على التفاصيل دخل ذلكَ الأمر من بابِ الاعتيادِ وعدمِ الاكتراث.

يجلس بخدٍّ ضامر وشفتين متيبستين ، حليق اللحية والشارب.. شعرُه المنسرح الى الوراء أشيبٌ كثيف يخالطه الشعرُ الاسود الذي بحكم تقدُّم العمرِ يُفصِح عن تراجعه فيفقد صبغتَه الدالة على الشباب؛ والفودان عادةً ما يأخذان اللون الفضّي الصارخ.

كانت رائحةُ شواءٍ مصحوبةٍ بفوراتٍ دخانية تأتي من المطاعم العديدة المتجاورة على يمين المقهى وهي تبيع الهامبرگر والشاورما كوجبات سريعة فيما بقية الوجبات الاساسية كالرز الصافي أو المخلوط باللوز والكشمش والبازلاء والزعفران مقروناً مع المرق بأنواعه؛ كذلكَ الكَباب والدجاج المشوي المصحوب بمقبِّلات متنوعة فيُقدَّم في صالاتِ مطاعمٍ كبيرةٍ وواسعة ... مطاعم تضجُّ بالإضاءة الصارخة تنتشر على جدرانها المرايا وشاشات البلازما تنقل برامج محطات فضائية دينية تمشياً مع مسار الدولة جاعلة الدين قريناً للسياسة.

وهناك في الجانب الآخر تدخل بعض العائلات وتخرج من محل معجَّنات افتتح منذ ايام؛ تتوهج فيه الانارة من مصابيح صفراء صارخة وثريات اضواؤها تنثرُ عَسجداً فيتفجر لون

المعجنات المُحمَّصة.. يتفجَّر رسائلَ إغراء واغواء عشّاق الـگنافة اللبنانية والبقلاوة الدمشقية مع الزلابية العراقية وزنود الست المصرية. كل ذلك تعرضه الواجهة اليمنى من المعرض فيما الجانب الأيسر مُخصَّص للمعجّنات الأخرى: للكعك اللامع المطلي بسائل السكر، مع الكعك المحمص بالسمسم الأبيض، مع الكعك المُداف بالفستق ومبروش جوز الهند.. الى جوار محل المعجنات امتد مقهى تتوزع كراسيه على الرصيف متجاوزة محلات ثلاث تبيع مواد انشائية في النهار وتغلق مع حلول الظلام فيستغلها صاحب المقهى ليوزع كراسي يحتلها الآن شباب ممن ركبوا موجةَ الحداثة التي تأتي بها الفضائيات فتراهم بقَصَّةِ الشَّعر السبايكي وبنطلونات الجينز الممزقة من الرُّكب والأحذية الضيقة الفلات، ممسكين بأجهزة "آي فون 7"، كآخر منتوج اطلقته شركة آبل.

يأتيني فايق بفنجانٍ قهوة (قدري أنْ أعشقَ شربَ القهوة رُغمَ مرارةِ طعمِها وافضّلها على باقي المشروبات)؛ يضعه أمامي على المنضدة ويستدير. ألمحُه حين دخل الى غرفة اعداد المشروبات وفتح الثلاجة لاستخراج قارورة سفن أب يطالعني وينقل نظراته الى الجالس هناك، في الزاوية.

يدرك فايق أنَّني أرى الرجل لأولِ مرَّة (متابعة حياته ستكون قدري كمشروع كاتب)، ذلك أنّني قلَّلتُ الحضور للمقهى منذ أُصبت بجلطةٍ قلبية (فقررت أنْ ألجَ حقلَ الكتابةِ بروايةٍ حتى لو صارت روايةً يتيمة كرواية" ذهب مع الريح" التي كتبتها مارغريت ميتشل وهي على فراشِ المرض) وصار لزاماً عليَّ تقييد حركتي. ولأنَّ المقهى بعيدٌ عن محلِّ سكناي فقد اكتفيت بالحضورِ كلَّ شهرٍ أو اكثر مرّة واحدة، أتمثَّل بالأدباء الذين يرتادونها (المقهى حياةٌ، مُجتمَع مُصغَّر، مُستعمرة بشرية حين يُطالع بمجهرٍ فحص المخلوقات الكبيرة) ويحظون بخدمة فايق لهم وتحمُّلِه نكاتهم وتقبُّل فكاهته التي غالباً ما تكون مؤذية يتقصَّدون من خلالها إغاظته وجعله يتفوّه بكلماتٍ غير مفهومة لا رابط لها، وهذا هو مقصدُهم معه.

اقتربَ من منضدتي بعدما قدَّم خدمة لجلاس يجاورونه فهمّمتُ بسؤال هامس عن ذلك القابع في الزاوية.

" لاحظتك من أول جلوسِك تُطيل النظر إليه. هذا يعني أثار فضولك. يعني تريد الاطلاع على حالته.".. قالها فايق مبتسماً.

" نعم، صحيح."

(أدري أنَّ لمثلِ هؤلاء قصصاً وحكايات تكمُن خلفَ انعزالِهم وكآبتِهم وصمتِهم الطويل. مظهرُهم يكشفُ حالاتِهم البائسةَ، وشرودَهم الدائم، ووحدتَهم المثيرة للاهتمام إنْ لم أقل المُريبة.)

حين نهض الرجل وانتصب أفصحَ انتصابُه عن قامةٍ طويلة وكتفين عريضين وإنْ أحدث الزمن انحناءَة تركت لديَّ فكرة أنّه يدخل حومةَ الشيخوخة من بابها العريض.

كان يعرجُ عرَجاً يبعث على الأسى فتعيّف من أجله الحياة وتجعلها السبب(هل الحياة صانعة المأساة؟).. هل كانت ساقُه مقطوعةً ويسير بساقٍ صناعية أم ثمّة عطبٌ قاهر حدث لها؟!.. يبدو أنَّ القدرَ تلاعبَ بحياته.. هذا مؤكّد.

ابتسمَ فايق ابتسامةً مُقتضبةً وأشارَ الى رجلٍ يجالس ثلاثة روّاد لكنّه منشغلٌ عنهم بقراءةِ صحيفة " الصباح" يبتاعها فايق مع عدد من الصحف كنشاطٍ يومي فينثرها على المناضد يبغي من خلالها صرف وقت الزبائن بالمطالعة ومتابعة الأخبار.

" ذاك مالك، يعطيك معلومات وافية عنه. كان صاحبَه لفترة طويلة من الزمن. ويعرف عنه الكثير. ".. تلقيتُ مطر فايق بما يمتلك من معلومات بروح ظمأى.

ثم مال منحنياً، وفي أذني همس: " تشبَّث بمالك فهو ينفعك بقصة تكتبها. ألم تسرُّني برغبتك في أنْ تصبح أديب كأغلب رواد المقهى؟ "

رحتُ اتابع الرجل وهو يخطو بعرج كأنَّه يتعثر، فوجدته توقف عند بائع شاورما منتظراً لبعض الوقت ريثما يزوِّدُ العامل مَن سبقَهُ، ثم بعد ابتسامة رسمها العامل كأعتذار لتأخيره تسلم منه سندويشة لفَّها بكيس ورقي أبيض وألقمَها كيس نايلون أخضر خاص بالمطعم مطُبوعٌ عليه الاسم واستعداد الادارة لتزويد حفلات الأعراس حسبَ الطلب.

كان الهواء بارداً وتيار ريح تشرين ثاني، التي شرعت تزداد هذه الايام دافعةً بالكثيرين الى ارتداء الملابس الشتوية، تضرب قامته فتجعله أكثر تمايلاً كأنه يوشك على السقوط(السقوط الذي بمثابةِ اعلانٍ قوة الريح وعتوها مقابل وهنِ الجسم وتهالكه)، يطالع المَكان كي يعبر الى الجانب الآخر من الطريق؛ والسيارات التي ازداد عددُها بشكلٍ مهول ابان سقوط نظام صدام استحالت عائقاً واضحاً لحركةِ مرور السابلة اضافة للأعداد الهائلة من الدراجات البخارية التي يقودها مراهقون (لقد غزت هذه الواسطة السهلة لكن الخطيرة مدنَ البلاد إمَّا لرخص ثمنها أو لإشباع رغبات مراهقين لعائلات حُرمت من حيازة أيةِ وسيلة نقل بسبب ضنك العيش من جهة ومن جهة أخرى عدم سماح حكومة ما قبل 2003 باستخدامها) ومعها عربات الستُّوتة المستورَدةُ حديثاً كي تكون بديلةً لعربات كانت تجرّها الأحصنة والحمير.

لقد انتعشت حركةُ التجارة والاستيراد بفعلِ ارتفاع اسعارِ النفط واتجاه الدولةِ الى اشباع حاجة المواطن الذي عانى طيلةَ اعوام تجاوزت الثلاث عشرة من حصارٍ دولي مُشرَّعٌ بقوانينَ والتزاماتٍ ففتحت الاستيراد بلا تخطيط ولا مراجعة دورية تبني أُسَّها على حالة استيعاب الطرق لأعداد السيارات المستوردة فانبثقت مشكلةٌ كبرى تمثَّلت باحتشادِ السيارات على جانبي الطريق لمعظم شوارع المدينة (المدينة المُجاهِرة بمحاولتِها امتلاك صفةِ الحداثة) وبات المرورُ متلكئاً وعسيراً وليس ثمَّة مخرجٌ أو حلٌّ يُنهي هاته المشكلة.

أخذ شرطي المرور المنتصب في التقاطع برفع يده يوقف حركة المرور فساهم في عبورِ الرجل الى الجانبِ الثاني من الشارع حيث اختفى عن الانظار.

تبارت في رأسي مجموعة أسئلة: "هل ألحقَه لمعرفةِ سبب ما فيه؟.. هل أدخل عوالمَه الدفينة كي أخرجَ بما يشبه الفضول المنبثق في لحظةِ رغبةٍ في معرفة؟ آه؛ ما الذي حدا بي لمتابعته والسؤال عنه؟ ولماذا أثار اهتمامي وجعلني اندفع لسؤال فايق إنْ كان هذا الذي أسمُه مالك سيُفصِح عمّا لديه من أخبارٍ وذكريات.. قد يتكتم الرجل عن أمورٍ مُهمّة في مسيرةِ حياة صديقه؟.. يتكتم!.. وماذا اذا تكتم؟.. ماذا يعنيني! تكتَّمَ عمّا لديه أم افصح؟! " (إنَّ القدر لَمضنٌّ، وإنَّ الحياة لبلوى) صوت داخلي صار يتعالى، وقلبي يطالبني بمعرفة ما يتعلق بهذا المنفرد في سيره، الوحيد في جلوسه، المتعثر في مشيّه.

قال فايق وهو يجيب على أسئلةٍ امطرته بها(كأنّي صحفيٌّ عثرَ على موضوعٍ سينال عليه مديحَ رؤسائه وجُلُّها تبحث عن هويةِ الرجل.):

" أسمُه نوفل عرفان، يعمل موظفاً في دائرة البريد، يسكن مع أُختٍ ارملة .. عنده أولاد عم ثلاثة. احدهم انضم في بداية تسعينات القرن الماضي الى ألوية السلام وقتل في شمال العراق اثر غارة قتالية شنَّتها عليهم قوات صدام، والثاني هاجر إلى أوربا فترة الحصار الدولي على العراق ولم يعد. أمّا الاصغر فانتمى الى أحد الاحزاب الدينية وقُتِل في مهمّة ضد الامريكان الذين احتلوا البلد في 2003."

الامريكان دخلوا البلاد محتلين واعلانهم بناء دولة راقية ليست كما الدول المحيطة إنَّما دولة تنام وتصحو على ديمقراطية وحرية وأمان، لكنَّهم خرجوا وتركوا البلاد تعيش صراعات داخلية لا أحد يدرك أوانَ انتهائها.

شردتُ قليلاً ثم عدتُ أُسلّط نظري صوبَ مالك الذي كان لا يزال يدس وجهه في صفحات الجريدة ويطالع.

انتبه فايق له، فتحرَّك؛ وكلّمه.

حدستُ كلام فايق يتعلّق بسحبِ الجريدة منه ، وقد يكون أعلمه برغبتي الحديث معه عن نوفل عرفان، لكنَّ فايق استدار بينما بقيتُ أتمعنُ بالرجل وهو يواصل القراءة... قليلاً ووجدته ينهض من مكانِه حاملاً الجريدة ومتَّجهاً نحوي.

" تفضل، وعذراً تأخرت عليك." قالها وهو يسلمني الجريدة كما لو كنتُ أنتظر تفرّغه من مطالعتها.

" نحن معتادون على القراءة من الصحف أمّا الاجيال الحالية فتطالعها من شبكة النت.. العالم يتغير، ومعه حياتنا تتغير هي الأخرى.. هذا هو قدرنا. إسمي مالك."

" تفضل اجلس، رجاء".

اشرتُ على فايق ان يأتينا بقارورتي كوكا كولا.

" رأيتُ قبل قليل رجلاً اثار اهتمامي.".. قلتُ وكنتُ أريد اكمال كلامي عندما قاطعني:

" هذا نوفل عرفان؛ صديقي وصاحبي وقريني في عمري. " وراح يتحسَّر ويهز رأسَه بشيءٍ من التململ أو التذكّر الباعث على الالم. (الذكرى قدرٌ حاصلٌ تُسترجَع لتعيد بعضاً من مجرى حياة).

" إنَّ لكَ معه حكاية، أليس كذلك؟! "

" بل حكايات!.. هذا الرجل لعبت به الاقدار فقُدِّرَ لحياته أن تكون أسيرة القدر."

كلامه وارب ابواب الاستعداد للحديث وأظهره شخصاً طيّعاً يمكّنني من توجيه الاسئلةِ اليه بلا وجل، والحصول على الاجابات بإسهابٍ ودون ملل.

" ما رأيكَ لو نلتقي؟ ." قلتُ بشيء من التضرع.

" ولم لا! " أجاب بترحاب.." متى يعجبك؟"

" غداً، إنْ رغبت "

" وهو كذلك.. سجل رقم هاتفي، اتصل بي متى رغبت"

قال ذلك ونهض مُلقياً تحية الوداع، ومؤكِّداً على موعد اللقاء..

اتخذ الدرجات الثلاث التي تنزله الى رصيف الشارع، وغاب.

عاد فايق، وفي عينيه بريق تساؤل:

"هل اتفقت معه؟ "

" نعم؛ وكان اريحيّاً، لم يعتذر."

" هل أعلمك بأنه قاتل أبيه؟"

" ماذا ؟!!! ..هاتف غازي قاتل أبيه؟!!!"... هتفتُ مندهشاً، ومصعوقاً.

" لا ترفع صوتَك، سيسخرُ منك الجُّلاس لجهلِكَ أنه قاتل أبيه؟ "

" هل تقصد أنا الوحيد الذي لا يعرف ذلك؟ "

" الظاهر هكذا! "

أردتُ معرفة بعض التفاصيل لكني شعرتُ أنْ ليس عدلاً أن ألهيه عن خدمة الروّاد.. لذا تركته؛ وهو بين حين وآخر يطالعني ويبتسم كأنه يدينني على غفلتي؛ أو يدين بلاهتي في عدم معرفتي بهوية مَن سألت عنه، واعلان أنني أراه لأول مرّة.

وأنا أدفع ثمن القهوة التي احتسيتها والقارورتين اللتين شربناها أنا ومالك كدعوة تعارف، همس فايق في أذني كما لو أنه يبوح بسر يهمني: تمسَّك بمالك.. هل اخذت موعداً منه؟

لم أجب.. فقط ابتسمت واستدرتُ، وتركته يلبّي طلب زبون لوَّح له.

***

شخص نوفل عرفان شغلني كثيراً. وجدتُ فيه مادةً يمكن أنْ تكون إذا تابعتُه، وأحطتُ بما يتعلق به، وتعرّفت عليه عن قُرب مادةً لرواية يمكنها تحقيق نجاحاً يمنحني الخلود... أريد أنْ أكونَ ككاظم السماوي، اسماً أدبياً له صيتُه عالمياً وإنْ بدت مدينتنا السماوة، كالكلبةِ التي تأكلُ جراءها، غير آبهةٍ به؛ شأنه شأن العديد من الرموز المُهمّة التي تستحق الفخار والتباهي بها.. أريد أنْ يأتي اسمي مَحفوراً على أسطرَ كتابِ التاريخ لا شخصاً هامشياً جاء الى الحياة ورحل دونَ ذكرٍ سوى قبرٍ سيدفن فيه وشاهدة تُعلن عن اسمه؛ سيزول الاثنان بعد عدد من العقود.. أريدُ لنُخبةِ المثقفين الأُصلاء الاحتفاء بي يوماً بعد موتي.. واذا كان كاظم السماوي قد ماتَ في التسعين وترك ارثاً من الشعر والنضال في مسيرةِ الحياة فإنَّ حسن الحبوبي الذي كان أقرانه يطلقون عليه شاعر الحداثة لكتابته قصيدةِ النثر في سبعيناتِ القرن العشرين وقتَ كان شعراء المدينة يكتبون القصيدةَ العمودية ويجاهرون ببحورِها الفراهيدية ووزنها وقافيتها ولم يولوا اهتماماً " بـ " و " لـ " قصيدةٍ اسمها النثر لا تعتمد الوزن وليس لها شأن بالقافية؛ إنَّ حسن الحبوبي هذا ماتَ بعمرِ الشباب ولم يترك ارثاً أدبياً يُعتد بهِ مع أنَّه كتبَ الكثير؛ ذلك أنَّ ما كتبه لم يُعتمد نشره. وحين مات تبعثرت أشعارُه؛ وقيل أنَّ عائلتهُ رمت اوراقه ومتعلقات الكتابة في القمامة لعدم درايتها بأهميةِ نتاجِ ابنِها الذي كان سيخلده لو جُمِع في كتابٍ كما هو شأن فرانز كافكا الذي خُلدت رواياته "المحاكمة" و "امريكا"، و "القلعة " بعدما نشرها صديقُه ماكس متجاوزاً رجاء كافكا بحرقِها بعد موته.

مِن هنا سَعيتُ لكتابة رواية أجعل وسائلَ نجاحِها مُمكناً اعتماداً على صدقٍ في التصوير مقرونةً بحبكةٍ متقنةٍ ولغةٍ أمتلكَ صولجانِ توظيفها التوظيف الأمثل جرّاء قراءات لكتبٍ لا حصر لها وتوجيهها نحو التدوين المؤثّر، سالكاً مَسلكَ الشدِّ والاقناعِ كأساسين مهمَّين من أسس نجاحِ العملِ الأدبي... أكتبها روايةَ العمر قبل أنْ يخذلني الذي بين أضلعي وهو يتوعَدني في كثير من الازمات الصحية والتقلبات النفسية بخفقان متكرِّر سيؤول يوماً الى رمي جسدي في هوّة السكون الأبدي وقذف الروح الى الفضاء والهباء والعبث، ولن تذهب الى ربها راضية مرضية الا بعد انجاز رواية العمر الفريدة والباهرة.

لا أبغي الشهرة الآنية عبر كسبِ بهرجةِ الحاضر، بل أسعى إلى الخلود الابدي من خلال عملٍ يكون لبنةً من لَبنات بُرجِ الانسانية الشاهق الى حافات السماء العليا، برج المعرفة المتراكمة الباقية بينما الأشياءُ الأخرى كما أرى وأوقِن فإلى زوال.. كان الرسول محمد يتحدث أمام الملأ داعياً ايّاهم الى سلوك درب الخلود وقطف فاكهة البقاء السرمدي في قلوب وعقول الأجيال بقوله " إذا ماتَ ابنُ آدم انقطعَ عملُه إلا من ثلاث: صدقةٌ جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٌ صالح يدعو له.".. ولما كنتُ لا أملك المال(ورثتُ الفقر من أب كافح طوال حياته ليعيل عائلة كبيرة العدد ولم يسعفه العمر فمات أربعينياً)، وليس عندي أولاد (نصحني الطبيب مُخلِصاً ومُحذِّراً بعدم الزواج والانجاب) فإنَّ الأمر الثالث هو ما سأتعلق به وأتشبث ليكون الدرب الامثل الذي أسلكه سعياً لنيلِ خلودٍ يؤكِّدُه نبي من انبياء الله، لا ينطق عن فراغ... هذا الخلودُ الذي يستفزني كمفردة جاءت عنوان رواية لميلان كونديرا الهامس لكل مَن يدنو من مملكته الابداعية " إنَّ الموتَ والخلودَ عاشقان لا يمكن الفصل

بينهما "، مٌستحضِراً عظماءَ الفلاسفة والشعراء والفنانين والموسيقيين وعلماء الفلك والروائيين الذين بصموا بصمتهم على جبهة التاريخ الغابر فخلَّدَهم أيّما تخليد: ارسطو وافلاطون وسقراط، ابن رشد وابو حيان وابن الراوندي، شكسبير وگوته، هولدرن وشيلر وكارل ماركس، موزارت وبتهوفن وباخ، ديلا كروا ومانيه وبيكاسو، تشارلز ديكنز وهمنغوَي وديستوفسكي... إنَّ الخلودَ الذي أبحثُ عنه وأُريدُ اصطياده ولوي عنقه كي يجعلني في صف العظماء هو ما أُكرسُه وأثبت وجودَه عبر الرواية التي سأكتبها، وأمهر بها على جبين التاريخ لتصبح سيماءً كالسيماء الذي يُشاهَد على جباه المُصلين من أثر السجود؛ فأردد مع " بتينا " أحد أبطال خلود كونديرا " إنني أريد أنْ أسمو بنفسي. أنْ اكونَ جزءاً من التاريخ لأنَّ التاريخَ هو الذاكرةُ الخالدة.".

(3)

مالك يحكي

بناءً على مقترح مالك ضمتنا المنضدة الساجية في بهو فندق " قصر الغدير" بعدما خلَّفنا عَجلةَ لاندكروز عُلِّقَت على جانبها سماعةٌ ينطلق منها صوتٌ رجل خمسيني العمر ملتحي في داخلها يدعو بصوته الفخم عامة الناس الى التبرع بالمال لإعالة المُهجَّرين، هناك على تخوم مدينة الموصل، الذين فلتوا من قبضة داعش ويشكون الجوع والعطش مَقروناً بالرعب من رصاص كان يئز قريباً من آذانهم، وقنابل هاون تنثر هلعها بعشوائية مجنونة.

كان الفضاءُ واسعاً والعُمال المهندمون في صالة الفندق يؤدّون الخدمات بهمّة ونشاط وإنْ كان الروّاد لا يتعدّون اصابعَ اليد. أحدُ الروّاد منهمِكٌ في الضرب على أحرف لابتوب أمامه وقد توهَّجت التفاحة البيضاء اللميعة المقضومة وسطَ الغطاء الذي بمثابة شاشة تشير لشركة " آپل " الرصينة في انتاجها؛ وهناك ثلاثة شبان يتابعون ما تعرضه شاشة التلفاز الوسيعة المُعلقة على الحائط تعيد مباراة ريال مدريد وغريمه اتلتيكو مدريد التي انتهت أمس بفوز الريال بهدف وحيازة كأس الأمم الاوربية في الوقت الذي رجَّحت التكهنات فوز اتلتيكو بقيادة سميوني على الريال الذي قاده قبل فترة قصيرة زين الدين زيدان. والمدربان كلاهما كانا لعبا لفريقيهما اللذين يدربانهما الآن ابان وجودهما كلاعبين أساسين وشهيرين... هناك شابان، يبدو أنهما طالبان، يجلسان متقابلين قريباً من الواجهة الزجاجية المطلة على مدخل الفندق منهمكان في مطالعة ما بيديهما من كتب مدرسية.
أما الجالس عند منضدة قريباً من السلم الصاعد الى ادارة الفندق وغرف النوم فكان ناثراً بعض اوراقٍ امامه ومعها اكثر من كتاب مفتوح . لابدَّ أنَّه تدريسي يعدُّ بحثاً جامعياً رصيناً؛ يدلل على ذلك مظهره المهندم وصرامة نظراته حين يرفع رأسه وينظر الى مدخل الفندق

وبابه الزجاجي المجهز بعين سحرية ينفتح اوتوماتيكياً لحظة اقتراب شخص ما قصد الدخول.

القهوة التي احتسيناها وسيجارة المالبورو التي انتهى مالك من تدخينها وضعتنا على ظهر زورق الحديث الذي انطلق به في نهر الذكريات:

((في يوم ثلاثاء من العشرة الاولى من شهر ايلول العام 1986 سلّمنا الضابط الذي برتبة ملازم ثاني نسخ كتاب رسمي موجّه من تجنيد السماوة إلى مركز تدريب الديوانية تضمن سوقنا بمعية عريف من دائرة تجنيد السماوة كُلِّف بمصاحبتنا.. كنّا سبعةَ اسماء: أنا ونوفل عرفان وخمسة افراد مَظهرهم ريفي. الكتاب يؤكد سوقنا كوننا ملتحقين لخدمة العلم بعد شمولنا بالعفو الصادر من وزارة الدفاع للهاربين والمتخلفين.

في الواقع لم نكن أنا ونوفل متخلفين أو هاربين عن قصد انما اداءنا الدور الثاني لامتحان الرابع العام سبب عدم التحاقنا مع اقرانٍ ولِدنا مثلهم في نفسِ سنة ولادتِهم. وبذلك كتب في صفحتنا المخصصة لمواليدنا في دائرة التجنيد على اننا متخلّفون لم نراجع خلال الفترة الضرورية المحددة لمراجعة مَن يشملهم السَّوق وفقاً لتاريخ تولدهم.

ولقد كان تخلُّفنا لصالحنا، وكان تشبثنا في المدرسة ومواصلة الدراسة هي المنفذ الوحيد لإنقاذنا من براثن الموت الذي انتشر في المدينة، بل في مدن العراق جميعاً. فالحرب دائرة منذ اربعة اعوام. والجبهة الشرقية التي اندلع فيها الرمي بكافة الاسلحة على الحدود صارت مادة دسمة للصحافة العالمية . فالعراق وايران بلدان نفطيان غنيان؛ وغناهما الله بثروة طبيعية تجود بها الارض ولا تأتي من جهد ابنائها تكون مثار حسد. لذلك كان الاعلام العالمي في أوج تأجيجه للحرب. تارة تنشر ماكناته الدعائية قوة العراق بتقارير تجعل القيادة تسير كالطاووس، وتارة أخرى تركز على عناد الايرانيين المنطلق من الشعور بالقوة والعظمة خصوصاً وقيادة سياسية جاءت على اثر ثورة شعبية عمّت البلاد الايرانية واظهرت ان القيادة لم تأتِ اثر انقلاب عسكري كما هو سائد في المنطقة.. إزاء ذلك كانت المعارك تتوسع وتشتد ويزداد أوار النار وتتلظى الحدود، ويسقط الشباب من الجانبين صرعى، وتُهدَر الاموال، ويتفاقم العِداء، وتكبر البغضاء، وتتسع هوَّة رغبة ايقاف الحرب فتغدو المحاولات الصادقة من اطراف مُقرَّبة للجانبين في التهدئة التي تؤول الى توقّف القتال ومن ثم الدخول في مفاوضات من نافلةِ الاستحالة.

نعم، كانت الحرب في أوجها وقلوب الأمهات والآباء تعتلج لوعةً وخشيةً من حدثٍ كارثي يُنبئ به علمٌ يَلفُّ صندوقاً خشبياً على ظهرِ سيارةِ تكسي وجندي يترجَّل بقسماتِ حزنٍ حاملاً ورقةً بتواقيعَ مُتعددة وعنوانَ شهادةِ وفاةٍ تتجمَّد الاعصابُ لحظة توجهه لبابٍ سيطرقه وخبرٍ سينزلُ كالصاعقة.

كان نوفل فَكِهاً سريعَ النكتة والتعليق؛ متورِّدَ ومستدير الوجه رغم طوله الذي يصل حد طول ديغول فشبَّهه العريف جبار، عريف السرية المتابع لكتاب الحرب العالمية الثانية بجزئيه المُجلّدين بهذا الاسم وهو يطالعه من قدميه المحبوسين بالبسطال الجلدي الاسود حتى هامة رأسه المغطاة بطاقية كالتي يظهر بها ديغول وهو يقود المقاومة

الفرنسية ضد الألمان الذين احتلوا فرنسا وتزوجوا باريس زواجاً عرفياً.. كثيراً ما كان العريف جبّار يجاهر مفتخراً بأنه يحتفظ بالكتاب المذكور بجزئيه وسيجلبه الى المعسكر يوماً ليقرأ صفحاته علينا في الأماسي قتلاً للوقت وكَسباً للفائدة عبرَ الأجواء الحربية والاطلاع على حالات الجنود في المعركة وكيف تتطلب من أجل تحقيق النصر على الأعداء. لكنَّ الايامَ التي تتالت اظهرت عدمَ مشاهدتِنا للكتاب بجزئيه، ولا سمعنا العريف يقرأ في احدى صفحاته لانّ البرقية السريعة جداً كالبرق والتي كانت " سريّة وشخصيّة " بالمصطلح العسكري القادمة من القيادة العسكرية العليا ابعدتنا عن مشاهدته وظل صدى وعده بإحضار الكتاب من باعثة الذكرى؛ وبقيت كلمات نوفل التي تأتيني عبر رسائله وتذكرني بالحرب العالمية الثانية والكتاب والعريف جبار وديغول تعيد لي اياماً من التدريب العسكري المكثف في مركز التدريب، فالحرب على الحدود مع ايران تنتظرنا لأنَّ وقودها لابد من الاستمرار، وليس لها غيرنا كي تظل في أوج اوارها.... البرقية التي قدمت فرّطتنا. فوجدنا انفسنا مُبعثرين على وحداتٍ متوزعةٍ عند جبهاتِ الحرب. أكتبُ إلى نوفل من حدود جبل كردمند حيث نُقلت، واصفاً بكلمات الرعب المهول القتال الليلي المستديم؛ الهجوم والهجوم المضاد، احتلال الجبل من قبل القوات الايرانية واستعادته من قبل قواتنا بينما يرد نوفل عليَّ من جبهة بسيتين. يعلمني باحتمال وصول خبر استشهاده إليَّ في أية لحظة. كان يقول " إنْ لم نمت بقذيفة مَدفع أو رصاصة ايراني مُهاجم فإنَّ موتَنا قد يحصل جرّاء هجومِ البعوض والحرمس على موضعنا. تلك الهوام القميئة نتوقعها تطوقنا وتحيط بنا ثم تهجم بدويٍّ عاصف لتمتص دماءنا بخراطيمها الأبرية فتتركنا جثثاً يابسة متخشبة.". يكرر ذلك في أغلب رسائله، معلنا غثيانه، ومفشياً شعوره بالهلع ليس من الموت انّما من صورة هجومها المدوّي وهو يرى المشهد يتجسد لحظة بلحظة.

لا ندري كيف بانتهاء الحرب طالعنا انفسنا فوجدنا أننا محظوظون؛ فقد قُتل لنا رفاقٌ واعدم آخرون بدعوى تخاذِلهم. ولم يَدُر بخُلدِ واحدٍ منا أنْ سيبقى حيّاً يشهد انتهاء الحرب؛ ويرى بيارق السلم تخفق، ويتحسس سيره معافى خالٍ من التشّوه؛ لم يبتر له عضوٌ ولم تُفقأ له عين.

كان نوفل يرى الحياة نكتة ساخرة مُدافة بمرارة. تنامت تلك الرؤية في ذهنه وظهرت على مزاجه ولسانه جرّاء مصاحبته لمؤلفات جورج برنارد شو التي تقطر سخرية عبر مسرحيات يضحك لها المشاهد الساذج ويقهقه لسلوكيات ابطالها على المسرح أو بين ثنايا السطور اثناء القراءة، لكنَّ المتتبع الحصيف يحزن ويتألم ويتمنى أن لا يسلك البشر السلوك المشين بحيث يمحقون أُخوانَهم في الانسانية لمجرد الرغبة في السيطرة والاستحواذ.. " إنَّ الحياةَ لنكتةٌ ساخرة." ؛ هذا القول يردِّدُه نوفل كلما تبارى أمامَه موقفٌ يتجسد فيه سلوك أصدقاء أو أناس يراهم على قارعة الحياة لا يفكرون الا بما يرضي شهواتهم ويحقق هيمنتهم بمجدٍ زائفٍ يتخيلونه، ضاربين عرض الحائط بمشاعر الآخرين من بني جلدتهم... كان مؤمناً بما تأتي به الأقدار، ويرى أنَّ ما يجري للإنسان مُقدراً له في صحيفته الخفية التي لا يعلمها الا الله.. فالقَدرُ والحياةُ صنوان متلازمان لا حياة بلا قدر، ولا قدر إنْ لم تكن هناك حياة.. وكثيراً ما كان يردد ضاحكاً ومتفكّهاً جملة " قَدَري قادَ بقرَنا " التي تعلّمناها في قراءة الصف الاول الابتدائي وكنّا نرددها بعذوبة بصوت كورالي جماعي تهتز له رؤوسنا وتطوح مفعمين بزهو المعلم وهو يسمعنا ويرانا منسجمين بالترديد ومستمتعين

بما نقرأ.. يفتح حرف الدال ولا يُسكِّنَها كما هو اسم قدري ، فيقرأها " قَدَري قادَ بَقرَنا " كم كان السيد ساطع الحصري ذكيّاً " يعلنها نوفل جهاراً " عندما ضمَّن القراءةَ الخلدونية هذه الجملة. أنّها تشير الى القَدَر، والبَقر الذي هو مجموع البشر في صيغة حياة. كم هو القدر متسلطٌ وله جبروتٌ الطغاة على البَقر فيقوده صاغراً ويسوقه أنّى ومتى شاء.. وعندما نقول له انتَ تُخطئ بقراءة مُفردة قَدري يضحك، ويقول: "أنا أخطئ فلا تُخطِئوا أنتم."... لقد أحبَ بودلير كثيراً.")

توقف لبرهة قبل أن يسألني:

" هل تعرف بودلير؟ "

" أعرفه، ولكن قليلاً."

" قليلاً؟.. يعني تعرفه.".. قال مالك ذلك، وأكمل:

"كانَ نوفل يحب الليل كثيراً، فهو في قاموسه ابجدية لحريةٍ يستلبَها منه النهارُ المُعرِبد بحركة البشر والعربات والزحام والازبال وفضلات المطاعم وما ترمي به محلات البقالة والعطارة وبصاق المارة على الارض وتمخطهم بلا مناديل.. الليل عنده كتاب يرحل بصفحاته على ايقاع الراحة الذاتية كوحيد يتعامل مع ما حوله بحميمية.. ولحسن حظه، وهذا ما يبوح به مراراً، أن في المدينة محطةَ قطارٍ.

في المحطة يلتقي عند منتصف الليل قطاران سريعان احدهما قادم من العاصمة بغداد والثاني من البصرة يلتقيان بوقت واحد في السماوة باعتبارها المدينة الواقعة في منتصف الطريق بين المدينتين، هناك يهبط ركاب القطار، مستفيدين من الوقت الذي قد يمتد لعشر دقائق قبل وصول القطار الثاني الذي يتَّخذ نفس السكة الحديدية ، فيندفعون لشرب الشاي والمشروبات الغازية أو شراء المكسَّرات والقرامش؛ وإنْ سنح لهم الوقت فلشراء سندويشات الكبدة والكَباب.

في محطة القطار كثيراً ما كان نوفل عرفان يذهب ليخطف من الليل بهرجةً يُحبُّها.

كانَ يأنس لمشاهدة حركة الباعة وهُم يهبّون بنشاط واندفاع معلنين بأصوات عالية عما يعرضون فيهرع الركاب للشراء... يشاهد الجنود الملتحقين بوحداتِهم بسحناتٍ كئيبةٍ، ويتلمَّس اقرانَهم القادمين الى أهليهم سعداء؛ في جيوبهم نماذجُ الاجازةِ عن أيام سيصرفونها بسعادة وسرور عبر لقائهم بمن يُحبّون أو مرافقة أصدقاء راسلوهم بواسطة بريد تتولاه الوحدات العسكرية بخدمة مَجانية... ولم يخطر على باله أنَّ موقفاً سيحصل سيجعل من قادمات أيامه منعطفاً لحياة قادته الى الوعي المرير... حصل ذلك عندما وقف بجانب رجل نحيل اربعيني يرتدي معطفاً صوفياً أسود يتَّقي به برداً جسدته تيارات ريح شتائية قارصة. قدَّم هذا الرجل مبلغاً لبائع السجائر ليعطيه علبتي سومر بالغلاف الاسود والسيجارة الطويلة.. لا يدري نوفل كيف انطلق من فمه سؤالٌ مثل متطفِّل أقحم نفسَه بشيء لا يعنيه: " علبتان كثيرتان عليك؟".. فنمَّ وجهُ الرجل الذي كان بعين زائغة أقرب للحول عن ابتسامةٍ سمحة ولم يُدِن فضولَ سائلِه: " الوصول الى البصرة يتطلَّب

هاتين العلبتين؛ الطريق طويل." ورسم ابتسامة ارادها تُشعِرُ سائله بالقناعة.. وفي اللحظة التي تدافع المسافرون على رصيف المحطة اثرَ سماع نفير القطار ايذانا بالتحرك واستدار الرجل ليلحق بباب القاطرة التي هبط منها سقط من جيب معطفه كتابٌ لم تمنحه اللحظة فرصةَ الانحناء لرفعه فتركَ نوفل يرفعه كي يقدمه إليه.. لكنَّ الرجل ولخشية فقدِ القطار هرع يضع قدمه على درجة القاطرة ويقف عند الباب يكلّم نوفل من بعيد:" خذه.. اعتبره هدية منّي لكَ.. الكتابُ لشاعرٍ أُحبّه.. أمّا أنا فاسمي مكتوبٌ عليه بخطّ يدي.. أنا أيضاً أكتبُ الشِّعر.".. "أنتَ شاعر أيضاً؟".. لم يسمع نوفل تواصل الكلام بنعم أو لا، فقد طغت أصوات عتلات القاطرات في الليل البهيم، وتواصل نفير ماكنة القطار حتى آخر قاطرة تخلّف المحطة وتترك فراغاً أفصح بعد قليل عن نقيق ضفادع من مستنقع خلف ورشة تصليح القاطرات وتشحيم المكائن.. ولم يحظ نوفل بغير تلويحةِ الرجل الذي بقيت صورته بقوامه النحيل ومعطفه الاسود الطويل وعينه الزائغة قليلاً.

اسرع نوفل بالكتاب ليقف تحت ضوء مصباح يمكنه من قراءة العنوان ومؤلفه واسم مقتنيه.. من يكون هذا الرجل؛ ومن هو المؤلِّف.... كان الكتاب يحمل عنوان (شارل بودلير.. اليوميات). وبعد الغلاف الرئيس قرأ بخط اسود متقن وجميل عبارة (من مقتنيات محمود البريكان– البصرة) .

ذلك الوقت المتبقي من الليل لم يكن من حِصّة الرقاد ؛ فقد انهمك نوفل بقراءة الكتاب صفحةً فصفحة، وسطراً فأسطرا.. تتناهشه مقولات اطلعته الخطوط المرسومة بحبر أحمر خطّها البريكان عن جُملٍ بمثابة حِكَم احدثت في داخله رعشة عنيفة واصوات متداخلة تشبه اصوات تكسر زجاج.. خُيّلَ إليه أنَّ البريكان هو مَن يُحدِث فيه الرعشة، وهو من يُكسّر زجاج الطمأنينة، من تلك اللحظة، التي أحسَّها ولّت فانبأته بمسار سيصنع منه انساناً تنطلق منه الاسئلة، لا تأتي منه الأجوبة:" كان البريكان يهتف به:" عند تَشأةِ أيةِ فكرةٍ رائعة ، هناك رجّةٌ عصبية تفصح عن نفسِها في المخيخ."... صار مخيخه آنذاك يعيش الارتجاج. إنَّ للرّجة فعل التغيير الحاسم؛ وإنَّ للفكرة تأثيرٌ خرافي في النفس التائقة للخروج عن المألوف... شبّه له إنَّ الرجل ذا المعطف الذي قرأ اسمه البريكان ليس أُنسيّاً إنما مخلوق قدم اليه من وراء حُجُبِ الغيب. جاء راكباً القطار كتمويه عن حضور أنسي لا يختلف عن بقية الركّاب.. قال له البريكان: " هناك أيضاً من لا يستطيع أن يلهو إلا وهو في قطيع.. البطل الحقيقي يلهو وحيداً.".. دُهِش نوفل، فتساءل:" أهذا الكلام لك؟"... ضحك البريكان:" لا هذا لبودلير.. أنا اتكلم بلسان بودلير."... وهل قولك:" خامرني وأنا طفل احساسان متناقضان: التقزز من الحياة والانتشاء بها." لبودلير أم لك؟".. ضحك الرجل وزاغت عينه أكثر جراء ضحكته التي قاربت الى القهقهة:" كل ما اقوله هو لبودلير ... أنا لي اشعاري التي يوم نلتقي في البصرة أُطلِعكَ عليها.. من اليوم نحن اصدقاء".))

"وهل التقى نوفل بالبريكان في البصرة أو أي مكان آخر ؟".. سألتُ مالك متلهفاً.

ابتسم ابتسامةَ مَن يُقدِّر عظم شغفي لحكاية البريكان والكتاب، ولحكاية شاعر الكتاب، ولحكاية مالكِ كتاب الشعر.

ومن هنا ولأجل جعل الكلام القادم مشوّقاً ومُهمّاً أكثر لدي استلَّ مالك سيجارةً وراح يلقمها النار من ولّاعة ويسحب نَفَساً عميقاً وعيناه تطفحان بالزهو لأنّه شعر كما يبدو أنّه أسرني، بأسلوبه.. وكان على حقّ في تخمينه، إذ تراءى لي مُحدِّثاً قادراً على تشويق مستمعيه، وصياداً ماهراً في جذب الآخرين وايقاعهم في شبكة اللهفة والترقُّب.

((مؤكداً التقاه... لأن نوفل وبعد مطالعته لشعر بودلير وتوقفه كثيراً عند عباراتٍ وجُملٍ وجدها مُعقَّدة تحمل بُعداً فلسفياً تحتاج لإعادة قراءة لأكثر من مرة بغية هضمها واستيعابها ومن ثم الوصول إلى مرافئ فهمها فهماً عميقاً ادرك أنَّ البريكان على حقٍّ في حبّه لهذا الشاعر، وأنّه حين يلتقيه ويقتني شعره لابد أنْ يجد تأثيرات بودلير عليه.. لقد سمع من مدرس اللغة العربية في المدرسة مرَّةً أنَّ النصَّ لا يأتي من فراغ، وأنَّ أيَّ كاتبٍ لابدَّ أن يتأثَّر بمن سبقه أو عاصره من الكتّاب... جاءَ هذا القول في مَعرض الحديث عن تجربةِ محمد مهدي الجواهري وكيف أصبح علماً عندما اشار المدرس لهيمنة المتنبي وسحره على الجواهري؛ وجعله يحفظ ثلثي ديوانه عن ظهرِ قلب... من هنا زاد شوق نوفل للبريكان، وخطط لزيارة البصرة في اقرب فرصة رغم انه سيجد صعوبة عند وصوله؛ إذ لم يكن قد زار المدينة من قبل، وستزداد الصعوبة عندما يصل. كيف سيستدل على عنوان البريكان؛ وهل سيكون البريكان على استعداد للقائه أم سينسى لقاءً سريعاً جرى في محطة قطار، وقد يُشكِّك الرجل فيه لأنَّ رصيفَ المحطة ساعةَ التقيا كان مضاءً بأضواء خافتة جداً، واللقاء لم يستغرق غير لحظات خاطفة صاحبَها القلق وهو يسرع الى القاطرة ليضمن استقرار صعوده فلم تتشرب عيناه بصورته.

من ذلك اليوم وجد نوفل في شعر بودلير تعبيراً عن حال مخلوق يريد للسأم أن ينتهي من قاموس البشرية وتمحى مفردته إلى الابد.. لم يكن أحد مِمَّن معنا في المعسكر سمع باسم بودلير، ولا شاهد ذلك الوجه العبوس الذي جُعل صورةَ الغلاف الامامي لمجموعته " ازهار الشر" التي ابتاعها نوفل من مكتبة المثنى في بغداد بعد أن عرَّج على عدد من مكتبات السعدون وشارع المتنبي فلم يحظ به. قالوا له ان شاعراً اسمه رامبو هو مَن لديهم اشعاره؛ وأنَّ هذا الشاعر واقصد رامبو تأثر بشعر بودلير وسأمه.. لم يتوانَ نوفل عن شراء اشعار رامبو فراح يلتهمها ويكتشف صدق القول في التأثر... أحبَ نوفل في رامبو شجاعته ونزقه وأكبر فيه موهبةً تفجَّرت وهو بعمرِ المراهقة فجعلته الشاعرَ الشهير كما قرأ العديد من الدراسات المُشيدة بهذا المراهق النزق، الخارج من أيقونةِ الشعر التقليدي المثالي المتوارَث، إلى الشعرِ العابرِ للمألوف، الرافض، المنفلت؛ والداعي إلى سلوك طريق الحداثة؛ فليس بغير الحداثة يستطيع البشري التساوق مع يومه.

الاطلاع على شعر بودلير ومن بعده رامبو جعلا من نوفل شخصاً يفضل التواري ويقلل اللقاءات، وحين افتقدْه وأذهبُ الى البيت اسأل عنه تطلعني أمّه على صرف مُعظَم اوقاته في المكتبة الحكومية العامة... هناك رحت اشاهده يقرأ وإذا خرج فاستعارة عدد من الكتب يحملها تحت ابطه وهو يكلمني عن لذة لا حدود لها عندما يقرأ ويطالع النتاجات التي تضمها الكتب. كان يشير الى رفوف المكتبة ويقول: انظر يا مالك؛ إنَّ هذه هي الكنوز البشرية فعلاً؛ فالكنز ليسَ المقتنيات من الذهب والفضة ولا اللآلئ والالماز ولا الاحجار الكريمة من العقيق والكهرب والفيروز، إنَّما هذه.. ويشير إلى حزمة الكتب

التي يحملها.. ثم يكمل: بي شوق لالتهامها، وبي خشية أيضاً لتسارع الأعوام فأموت قبل أنْ التهمها جميعاً.. إنَّ الانسانَ لا يشبع من المعرفة.. لا يشبع أبداً.))

ويرفع محدثي رأسه مشيراً على النادل أنْ يأتي لنا بفنجاني قهوة وقارورتي ماء معدني.

صرفنا ربع ساعة في الارتواء بما شربنا، أعقبها بسيجارة أخرى أوقدها وتلذّذَ في سحبِ أنفاساً منها بينما رحتُ في غضون ذلك أُطالع أربع نسوة دخلن الصالة بقامات طويلة تسربلهن العباءات السود فاتَّخذن ركناً تحلّقن حول منضدة وعيونُّهنَّ تمسح القاعة كما لو كنَّ ظامئات وأَعطينَ الحرية لعيونهن كي ترتوي ولنفوسهن بستان الحضارة التي يفتقدن.. لقد كان هذا المكان مُهملاً وموحشاً يفتقد لليد الحانية والروح الفنية التي تعيد إليه الحياة وتجعل منه مكاناً يتباهى بحسن تنظيمه، واشادة بالذي أعاد اليه الحياة وبالقائمين عليه والحريصين على جعله يتشرب من حضارة أُمَم سبقتنا في التشييد والترتيب والتنظيم وصنع الجمال المُفتَقَد... لمحهن مالك فأسرَّ لي بالقول أنَّ هاتين النسوة يأتين بين فترة وأخرى، قد يقل عددهن الى الثلاثة أو يزيد الى الخمسة والستة، يتناولن وجبة عشاء ويستمتعن بالجلسة ثم يخرجن بحبور وشعور بألفة تكشفها خطواتهن على ايقاع مَن سعدن واشبعن قلوبهن بالهناء.".

قلتُ: " كم هو جميل رؤية نساء مدينتي جميعاً بهذه الثقة والكياسة بحيث يرتدن الاماكن العامة فلا يخضعن للانزواء في البيوت ويتهالكن مركونات في زوايا الغرف... إنَّ أغلبَ النساء عندنا هنَّ مَن يرتضين الركون والتهالك ، وإلا لماذا لا يصبحن كهؤلاء النسوة."

" وأنا معك.".. قال .. ثم شرع بمواصلة الحديث:

((قراءات نوفل اتسعت وتشعبت فجعلت منه موسوعياً؛ صنعت منه مثقفاً.. صرتُ أسمعه يجاهر بالكثير من الآراء المتَّسِمة بالضجر من الماحول والشجاعة التي يجب المجاهرة بها؛ كأنه امتلك من بودلير ثراءَ السأم، واخذ من رامبو سمةَ الشجاعة... صرتُ اسمعه يقول وأنا اخشى عليه من ردّ فعلٍ مِمَّن لا يرضيهم كلامه وافضاءه، وما أكثرهم: "إنَّنا أمّةٌ حكامُها وولاتها وسلاطينها يفتقدون إلى النباهة والمعرفة والنظر الى أمام فجعلوها تفتقد للكثير من مقوّمات الأمم الحيّة، المتطلعة الى غدٍ مشرق ومستقبل تكون فيه الاجيال القادمة في فخار من ايامها، وزهو لما قدمته لهم."

" نحن أُناسٌ لا نعرف العلم ولا تعاملنا معه وبه منذ خمسمئة عام " كان يقول ، فيثير ببوحه دهشتي، وأسأله ذاهلاً: من أينَ لك، يا نوفل، كل هذا الكلام والتصوّر؟"، فيرد بلا دهشة، بل بتحسّر: " من هذا الواقع المعاش، من وجودِنا بين الاقوام.. نحن أناسٌ نشعر بالدوار حين نهمُّ بالتفكير، نعتاش على الرتابة ونأكل من مأدبة الحِكَم التي تؤكد الاتّكال على الغيب بوصفه الآتي بكل ما تطيب له نفوسهم.. جعلونا أناساً لا نحب التفاؤل ولا نرتضي الأمل برنامجاً لحياة قادمة، أكبر فصولها الربيع.))

وجدتُ من الأولى التعرف على لقاء نوفل بالبريكان، فرحتُ ألح على مالك ليصوّر لي اللقاء وكيف كان، وما تأثيره على نوفل، فلم يبخل.

فبعد تَفَسٍ عميق من السيجارة الحبيسة بين سبابته والوسطى أطلق للسانه فعلَ القول:

((في ليلة من ليالي نيسان الخارجة تواً من برد شتائي صقيعي ، وفي قطار كالذي كان البريكان يستقله ووجهته البصرة توجه نوفل صحبة عزيمته واصراره على لقاء البريكان.. ارادها سفرة العمر التي تفتح له مغاليق حياة انسان لم يعرف عنه الكثير، وكان حدس ان الخطوط التي كانت مرسومة تحت اشعار بودلير كعبارات محببة لديه ومؤثرة عليه هي شفرة التعرف على الرجل... لكن تلك كانت سفرة مخيبة للآمال وطعنة مؤلمة نافذة في صميم قلبه.. فالذي تأتي به اللاتوقعات كثيراً ما تشكل صدمة في الذات أو صفعة على خد الأمل. ومع ذلك تجاوز الالم، وقفز على الموقف ومجرياته. وحسبها بعد حين انعطافة كبيرة في حياته. ذلك أن نوفل ومن تلك الزيارة تغير جذرياً.))

قلت: انت شوقتني.. حدثني، ولا تبخل.

((نعم أُحدِّثُكَ، أُقدِّرُ شوقَك.. اعرفك.. أعرف أولئك الذين اذا أحبوا وتعلَّقوا تشبَّثوا، يظلون في حالةِ انشداد وتوتِّرٍ. وإذا تطرَّفتُ في القول أجدهم يبلغون حدَّ العشقِ والوجد. فأنت الآن كما أراك في شوقك كشوق نوفل للقاء البريكان يومذاك... ففي سفره إلى البصرة راودته الكثير من الشكوك. أهمها أنه لن يحظ بلقائه؛ إذ لن يجد فرصةً لأخذه من مريديه ومعجبيه، ومن يعيشون الزهو والحفاوة إلى جواره وبمصاحبته. فسيكون منشغلاً في استضافةٍ أدبيةٍ هنا، ولقاء في ندوة هناك. لن يقدر على سرقته من فضول الصحفيين الذين يتهافتون على صيد مقولة أدبية يقولها في سياق حديث وإن كان عابراً، ولن يجد الوقت الذي يهبه له الرجل كي يذكره باللقاء في محطة القطار واظهار الكتاب الذي يحتفظ به، وكي يعلمه أنه حفظ المحتوى وأشبع ذائقته بالمائدة الادبية التي ضمهما غلافا الكتاب.... ولشد ما أوقع نوفل في صدمةٍ وكبّله بقيود الشده والدهش عندما وجد ملهمَه، وحيداً منزوياً في بيت طارف من بيوت المدينة يعيش العزلة، ويفضل الابتعاد.

في البدء ظنّه استثقل حضوره، وحسب أنه أخطأ بمجيئه ، لكن شيئاً فشيئاً تكشفت له دماثة خلق الرجل، ووجد فيه المستقبِل الأشم. ابتدأ بضيافة بدَّدَت لديه الشكوك، ثم ليل صرفا ساعاته يتحدثان فيفتح له أبواب كنوز المعرفة، ويطلعه على مجريات حياة اتسمت بالنهل الاقصى من التفاعل والارتواء من ثرائها. وبدوره أطلعه نوفل على قراءاته ، وحبه لمتابعة تجارب العِظام في مسيراتهم العمرية، ومبلغ تأثيرهم على الملأ، وملاحقة الملأ لهم بوصفهم قدوات معرفية وأمثالاً ينبغي أن تحتذى.

بقيَ أنّ اقول لك أنَّ نوفل وجد البريكان يملك مكتبة واسعة اثارت دهشته كما أعلمني وعيناه تمطران اعجاباً... مكتبة احتوت مجلدات ودواوين أشعار وكتب مترجمة ومجلات محلية وعربية وبعض من المجلات باللغة الانكليزية. وكم كان اعجاب نوفل وهو يشاهد لأول مرة مكتبة موسيقية ضمت خمسة رفوف احتوت اسطوانات وهناك ثلاث مناضد ساجيّة. كان على الاولى جهاز گرامافون، والثانية مسجل گراندك ألماني ببكرتين كبيرتين وشريط ممغنط عريض، والثالثة عليها مسجل ماركة "سوني" يشغِّل الكاسيتات الصغيرة. جوار هذا المسجل عدد من اشرطة " تي دي كَي " يبدو أنَّ البريكان استمع اليها قبل وقت قصير بدليل أنَّه لم يعيدها بأغلفتها الى الرف الرابع المخصص لمثل هذه الاشرطة...

تصوّرْ إنَّ نوفل كان يتابع البريكان ويلتقط المكان بأدق تفاصيله... البريكان هو مَن حبَّبَ لديه الموسيقى خصوصاً الكونشرتو الأولى لموزارت، وبالأخص الفلوت إذ يأخذ مساحة واسعة منها، ووقت مكرس لهذه الآلة التي أبصرُ نوفل يهيم لسماع الصولو الخاصة بها؛ واشاهده يطوح برأسه ويتمايل بجسده، ثم بشيء من الهيام يرفع يديه ويمثل حركة عازف يمسك بآلة الفلوت وينفخ روحه فتأتي الصولو مثل روح تنساب داعية سامعها الى الرحيل مع انغامها... يروح نوفل كما لو كان هو الذي يعزف؛ يحرك اطراف أصابعه بتوافق وانسجام مع صعود وهبوط العزف. تتلاعب الاصابع وترقص على نوابض الفلوت؛ حتى اذا انتهى أسرَّ لي عشقه لهذه الآلة الغربية.. اقول له عندنا الناي بمثابة بديل عن الفلوت.. فيجيبني بمعرفة: نعم، يتعالى على الفلوت بالشجن ومسحة الحزن.. صوت الناي يدخل الى القلب فيذيبه لوعة وحنان.

من ذلك اليوم قرر نوفل أن يحذو حذو البريكان في حب الموسيقى فصنع له مكتبة موسيقية من عدة رفوف صغيرة تحوي اشرطة لموسيقى عالمية ومسجل، يغرم في الاستماع للسيمفونيات والسوناتات وكان كلُّ همّه وهو يزور بغداد الذهاب الى محلات چقمقچي ليبتاع ما هو كلاسيكي من موسيقى عالمية.. حاسته الفنية الذوقية كانت تختلف عن حواسنا التي تميل الى الموسيقى الشعبية.. كنا نحنُ نحب داخل حسن، وحضيري أبو عزيز، وعبد الجبار الدرّاجي بينما هو يغرم بما هو عالمي.. وفي الوقت الذي يثيرنا الشجن لسماع مَن نرغب بهم في اوقات غير محددة فان نوفل جعل الاستماع لعشاقه عند حلول وقت العصر فيروح يستمع لسوناتات موزارت، وباخ، وبيتهوفن. وقبل أن يبرح البيت كان يقرأ من شعر رامبو. يرى رامبو فتى شجاعاً تعالى على واقع رسمه متهالكاً سفينة شعر بسارية رومانس في بحيرة تتهادى امواجها على ايقاع هناء خرافي.

بتعرفه على بودلير ورامبو وانغماسه في قراءة اعمالهما انتقل نوفل الى حالة الوجود القلِق والتَّظرِ بعبثٍ الى الحياة.. صار السأمُ حالةً تلازمه ، وسلوكُه أثار فينا شعور التكبّر علينا والتعالي مع انَّه بعيد عن ذلك... وفي يوم صارحه أحدُنا وعابَ عليه ترفُّعه على صحبهِ. وقتها اعتذر بشدَّةٍ وقرَّر أنْ لا يدنو من بودلير ولا رامبو بعد ذلك العتب؛ حتى انَّه جمع ما اقتطعه من قصاصاتٍ كانت منشورةً في الصحف المحلية وبعض الترجمات المقتطعة من مجلة الثقافة الاجنبية التي كان ينتظر صدورها ووصولها من العاصمة فيروح يطالعها بشغف، ويحرص على اقتطاع مواضيع يجدها تخص الاثنين فيلصقها في كراس خصصه له كشاعر جعلَهُ امثولة في تعاطيه مع الحياة والواقع وحيثيات اليوم المعاش... صارحني بأنَّه أقدم إلى غير رجعة على حرق مؤلفات بودلير وكراس احتوى قصاصات تعود للشاعر؛ قال أنا ابنُ الواقع فلا اسعى لمقاطعة واقعي؛ واصدقائي هم رصيدي الذي اعتد به.. من يومها شرع ينغمس معنا. وكان طيّباً متواضعاً في لقاءاتنا وارتباطاتنا... شاركنا في جلسات الشرب وتداول النكات والحكايات الباعثة على الفكاهة كعهده في السابق، كما ساهم معنا في سفرات جماعية لبحيرة ساوه وأبعد من ذلك إلى فيوض تحدثها الامطار شتاءً في الصحراء، هناك كنا نستمتع بصيد القطا والحباري ثم نعود مفعمين بالرفقة السعيدة والهناء العذب.))

يصمت محدِّثي ؛ ثم يذهب بنظراته بعيداً قبل أن يعود، ويقول:

((هناء ذاك المُقترن بعذوبةِ رفقتنا كثيراً ما كان ينطعنُ بسكّين الكَمد عندما يواجهه أبوه بالتعنيف والتذمُّر ورشقه بكلام لا يليق بالخروج من فمِ أبٍ يُفترَض أن يكون مُتَّزناً وكيّساً، مثلما لا يليق بالتصاقه به كشاب يفهم الحياة ويدرك تصرفاته.

كان تعنيفاً ثقيلاً اعتاد اطلاقه بوجه نوفل. فيه كثير من الاحتقار والازدراء ومن ثم اللامبالاة، خصوصاً وهو يراه يستمع لموسيقى لا يفهمها ويتمتم بكلمات غير مفهومة، يحسبها مَضيعةً للوقت ولا طائل منها، مُعتبره ابناً عاقّاً ليس من صُلبه ولا يتَّسِم أو يتَّصِف بما فيه.. يقول ايُّ مجنون هذا الذي يهيم بالطنطنة ؟! وأيُّ ضائع وهو ينفصل عنّا فيحشر نفسه مثل جرَذي في غرفته ويغلق الباب ولا يستجيب لنداء أمّه أو أخته عندما ينادين عليه لتناول الغداء أو العشاء؟!، وبدلاً من شكره لهنَّ ينفعل ويغضب ويحتج عندما ينقرن على بابه... من هنا انقلب تفاؤله الى تعاسة، والشعور بالسرور مع الاصدقاء إلى وباءٍ ومرض.

أحتمِل أنَّ العديد مِمّن لا يفقهون معاناة نوفل ولم يدركوا تمادي أبيه في اهانته وسلبه حقوق العائلة وتدمير طموحها ناهضوه ورفضوه ونبذوه؛ أمّا ممن يحملون الثقافة وينظرون أنَّ للأسرة حقوقاً على معيلها فقد وقفوا الى جانبه وإنْ هُم لم يعلنوها جهاراً وبصوت عال خشية رد فعل الاكثرية التي ناهضته ورفضته ونبذته. لذلك ظل هو يعبر عن معاناته بالناي وشجنه.))

انتقل محدثي بعدها إلى أعوام نوفل الأولى.. تحدث عن طفولته وفتوته؛ عن مخيلته المتوهجة واعتداده بنفسه؛ عن مطامحه الخرافية ورؤاه لمستقبل تخيله سيكون لنجاحاته وتألقه.. تحدث؛ وتحدث.

ولقد وجدتُ في الحديث مادةً دسمة سأحث اللغة والمَلَكة على تدوين مجرياتها كفصل أساسي من فصول الرواية .

سحب نفساً عميقاً من سيجارته.. وبعد سياحة سريعة على وجهي سألني:

" أي نوع من الكتابة تكتب؟ "

" أفكر في كتابة رواية .. محاولة أولى ، لم أكُن قد كتبت من قبل."

" لكن الرواية كما أعرف عملٌ مُعقَّد يهرب منه ارباع وانصاف الكتّاب، فكيف ستكتبها أنت وتقول إنَّها محاولة ؟"

" وما المانع ؟.. أتعتقد انك تهدر الوقت معي للحديث عن صديقك أم تحسبه انتهاك خصوصية صديق من التجنّي الحديث عنه؟"

" لا.. لا.. لا اقصد ذلك؛ ما قلته هو لأجلك. لأجل ان لا تتورط في كتابة رواية.. الكثير كتبوا وفشلوا."

وبشيء من شعور أنّه يضطهدني بما يقول، وقد يسبِّب لي الاحباط والانكفاء قال:

" لا تظن بي الظنون، لكنّي أضعك في مقام الشعور بعظمِ مسؤوليةِ انجاز رواية. لكن اذا وجدت أنّك قادر فستنجح.. سأنتظر يوماً اهداءً منك لي."

عند هذا الحد شعرتُ أنّني أثقلتُ على الرجل وسلبته وقتَه، وأرهقته باستفزاز ذاكرته... فمهاجمة الذاكرة تُرهق الانسان ارهاقاً عنيفاً، وترجُّ كيانه رجّاً يشبه ارتجاج ماكنة. إنَّ الذكرى بقدر ما هي نائمة في حجرات الذاكرة وتتقبل رماد الاعوام المتهافتة ويُظن أنّها آلت إلى الاندثار فإنها في لحظةٍ ما، في ساعةٍ ما، في يومٍ ما تنتفض كالعنقاء لتطير فتحلق في فضاء الذاكرة، مُعيدةً احداثاً ومناسبات، اماكنَ وازمان، سلوكيات افراد وتصرفات مجاميع متفاعلة جميعها في بوتقة تنتج تاريخاً يحفر وجوده ويثبت سرمديته.

بهذا الشعور، ورغم رغبتي في اغتراف ما يمكن اغترافه من ذاكرة الرجل، ارتأيتُ ختام اللقاء بسؤال مفاجئ له أجده مهمّاً لدي، تماماً كما يفعل مُقدِّمو البرامج التلفزيونية وهم يضمرون سؤالاً مفاجئاً لمن يقابلونهم وجهاً لوجه فيطلقونه بشيء من الاستفزاز والاثارة :

" ولكن لماذا يوصمُه الناس بقاتل أبيه؟ "

وكما لو كان يتوقع السؤال أجاب بلا تردد ومراجعة ذات:

" هذا ما لا أستطيع اخبارك به."

" ولكنك قلت كل هذا الكلام، واطلعتني على كم هائل من حياته كصديق فهل تعجز عن اخباري كيف قتل أباه.... هل حقاً ارتكب جريمة القتل؟"

" هذا ما لا استطيع الجزم به، فكلام الناس وتأويلاتهم للحادث كثيرة لا يمكن اعتماد تأويل واحد... لذلك اتمنى لو قابلتَ فاضلة."

" مَن تكون فاضلة؟ وما علاقتها به؟

أخرجَ قصاصة ورق من جيب سترته الجانبي؛ ومعها استلّ قلماً، وكتب:

" خذ.. هذا رقمُ هاتفِها.. قُلْ لها من طرفِ مالك."

خرجنا من بهو الفندق فأطلعتنا الفسحة الخارجية المزدانة بأشجار الرمان والليمون بغياب الشمس ومقدم الغروب وانطلاق صوت الله من السماعات المنبثقة من هامات منائر الجوامع بآيات من الذكر الحكيم كتمهيد لمقدم أذان المغرب.

عبرنا الجسر سيراً على الاقدام ونحن نطالع الفرات الذي غدا ساقية، وتحولت الضفاف التي علا رملُها وغرينُها إلى شريط عريض بفضل انحسار الماء استغلهُ بعضُ العاطلين من الشباب فجعلوه كازينوهات لا تحتاج سوى إلى كراسٍ ومناضد وعدة مصابيح ترفعها أعمدة حديدية تأتيها الكهرباء بطريقة غير رسمية من اسلاك تغذية الشوارع والبيوت.

السيارات تمر مسرعة عابرة الجسر الى الجانبين وسائقو التكسي يرمشون بمصابيح سياراتهم لهما كإشارة لاستعدادهم للتوقف وحملهما حتى لو تسبب ركوبهم في ابطاء السير او توقفه.. تذكرتُ تلك اللحظة الابتسامة العريضة التي رسمها القائد الياباني الذي

كان يطالع من نافذة سيارته العسكرية التي تتبعها ثلاث سيارات مسلحة اكبر حجماً تنتصب على قاعدات في الاعلى وخلفها عسكريون يابانيون بطاقيات خضراء داكنة اكثر دكنة من بدلاتهم الكاكية يبتسمون حين تطالعهم الوجوه... ابتسامة القائد الياباني تتولد لمشاهدة موقف يراه شاذاً يتمثل بوقوف سائق التاكسي في وسط الطريق ضاغطاً على الكابح فجأة بلا حساب للسيارات التي خلفه والتي قد يتسبب وقوفه المباغت باصطدامات لأكثر من عربة... لابد لي من ذكر ان هؤلاء اليابانيين شكلوا عقدةً لنا، وبتنا نراهم ثقلاً على كواهلنا؛ ليس لانهم ضيوف ثقيلون أو محتلون لهم اطماع ونوايا سيئة كأن يقتسمون نصف العراق ليجعلوا منه جزيرة مضافة لجزرهم الثلاثة آلاف، إنّما لشرارات الحسد المنطلقة من عيون كل مَن التقاني في مدن بلادنا التي ازورها. فلقد كانت حصة محافظة المثنى ضمن خطة وضعتها القوات المتحالفة التي احتلت العراق في العام 2003 رسمياً بقرار معلن من الامم المتحدة القوات اليابانية؛ وعهدت لهذه القوات التي تنتمي الى بلد يتوهج شعبه القاً في الصناعة والاقتصاد والذكاء. وكان الحسد يتأتى من أنّنا محظوظون. فناطحات السحاب سوف تشق سماء السماوة، وترتفع الابراج، وتتوزع المصانع، وتنتشر الحدائق، وتعلوا المُجسَّرات، وتغدو الشوارع العائمة لا عدَّ لها، وستزداد الأحياء العصرية ذات الهندسة المتشابهة الهيكل والبناء فتصبح المدينة لا شبه لها بمدن العراق؛ ويومها ستصبح مزاراً وقبلة لمن لم يشاهد اليابان ولم يطلع على مدنه بما تحوي وشعبه بما يكون... وعندما نقول لمن يعلن حسده اننا لم نر من اليابانيين سوى عرباتهم العسكرية التي تخترق المدينة وجنودهم بوجوههم المبتسمة، وقادتهم الذين يدخلون الى مبنى المحافظة ليجتمعوا بمحافظ المدينة؛ ولم ينل من اهتمامهم غير الارياف والقرى النائية إذ جلبوا لهم خزانات حوضية بلاستيكية ومولدات تصفي لهم الماء فيأتيهم ماء آرو العذب الخالي من الاملاح... كلامي كان يثير فيهم الدهشة، فيجدون في حديثي نوعاً من محاولة ابعاد الحسد؛ أو هو أسلوب من أساليب اتفق السماويون على اتباعه حتى لا تطالب المحافظات الاخرى باليابانيين أن يجيئوا لمحافظاتهم.

مرّت من جانبنا السيارة التي كانت قبل ساعة تخترق شوارع المدينة تطلق صوت طلب المساعدة لكنها مرت بلا نداء؛ فقط كان الرجل الملتحي الذي أطلق عقيرته بالرجاء يدير وجهه للسائق يتحادث معه.. وهناك على اسلاك الكهرباء جوقات عصافير وبعض طيور الزرازير السود ترابط وترصد براداراتها ومجسّاتها جيوش البرغش والفراشات العمياء التي ستنطلق مع حلول الغروب لتتحلّق حول هالات مصابيح الشوارع فتستحيل وجبة عشاء قبل أن تؤب الى اعشاشها، تاركة باقي المهمة للخفافيش وهي تبصرها عن بُعِد تندفع من الجحور وشقوق الجدران والكوى المعتمة للخرائب المهملة، لعلَّ احداها كنيس اليهود المتروك على حاله منذ العام 1951 بعدما غادروا المدينة إلى غير رجعة، لتعزف سيمفونية الالتهام والرقص في الهواء على ايقاع الخطف والتقاطع والانقضاض.

عند أول سلم يسمح به الجسر في جانب المدينة الكبير أعلن مالك عزمه النزول الى شارع الكورنيش(وقال بما يشبه الهمس: لا، ولن اصدق أنَّ نوفل ارتكب جرم قتل ابيه) بينما اوضحت رغبتي بمواصلة السير الى شارع باتا؛ هناك سأعرّج على الصيدليات لشراء عبوات من كبسول " الأوميگا ثري" الذي نصحني الطبيب بتناولها بين فترة واخرى كمادة

عضوية تعاضد القلب في كفاحه الديدني وتجعلني في نشاط دائم بعيداً عن المفاجأة المميتة.

القسم الثاني

(1)

عاقَرنا الأَهوالَ حَتى غَرِقنا

وَشَرِبْنا كؤوسَ الرَّزايا حتّى تَرمَّدَت

عَينا التَّحمّل.

زيد

((دولة داخل قلبي))

صفحات من حياة نوفل عرفان كما أباح بها مالك

الصفحة الاولى

عرفان الأب .. الجذور والغنى

وسطَ قدرٍ فتحَ أبوابَ الحظ، وعلى ايقاع تَبسّم السماء وجد عرفان الأب نفسه يعيش وسط بيئة جعلت منه انساناً له قدرٌ ومكانةٌ عبر ثراءٍ لم يحلم به.. ففي الوقت الذي كان الآخرون من اقرانه يَشقّون ويكدّون ويتعبون حتى يتسلموا جزاءَ عملهم فُتاتاً من نقود كان عرفان يحكُّ فانوسَ علاء الدين فيظهر له جنُّ سليمان فيأمر بما يريد فيتحقق له بلا شقاء ولا تعب، فيروح يرفل مزهواً وسط حسد الناظرين الذين يندبون حظوظهم لأنهم لم يحظوا بما حظي هو به.

وفي وقتٍ كان عرفان يعيش خلاله التنقل من عمل لعمل، ويعاني الشقاء هنا وهناك رست عند مملحة المدينة سفينة بحثه عن عمل يجد فيه استقراراً.. مكان حباه الله هبة طبيعية إذ ترى على مد بصرك مساحة بيضاء يطفو فوقها ماءٌ لاصف وتحيطها ارض جرداء لا نبت فيها ولا زرع. كان الرعاة من المارة أذ يدركونها يغرفون بأوانٍ معدنية كمية من البلورات البيض كمادة تدخل في طعامهم.

وصولُه للمملحةِ حدثَ مصادفةً، إذ كان يوماً والعمرُ يرسو عند محطة الثلاثين عاماً عند حافة الطريق الاسفلتي بانتظار من يقله إلى المدينة بعد مهمة شراء تمور من أحد البساتين البعيدة ليبيعها في المدينة فلم يوفق. يقف بثوبه الأسمر الموحل والحزام الجلدي البالي يشد بطنه فيما اليشماغ يغطي رأسه ويقيه من شمس لافحة يرفع يده

للمركبات المارة علّ واحدة تقف لتحمله... وكان إن أبطأت سيارة مرسيدس صالون سوداء اللون، ووجد نفسه يتقبل ايماءة رجل يقود السيارة.. ثوب ابيض مترف وعقال اسود وغترة بيضاء ووجه ابتسم ابتسامة عريضة لحظة هبطت زجاجة السيارة الجانبية.

وسمع عرفان صوتاً مُرَحِباً: تفضل.

صعد إلى السيارة الفارهة من الداخل، وغرق في عطر كانت تأتيه نفحاته من قارورة زجاجية كروية ملتصقة على صدر الدشبول، والرجل بفخامته واناقته شرع يتكلم معه ويسأله، وهو يجيب.. ولا يدري كيف استحسن الرجل للإجابات، وكيف استمر الحديث ففهم عرفان من الرجل أنه مقاول قادم من مدينة شمال العاصمة بغداد ولديه مقاولة استغلال المملحة الواقعة في الطرف الغربي من المدينة، وسمع عرضاً منه أن يعمل لديه في المملحة كمراقب يشرف على مجريات العمل، ويتابع العمال في نشاطهم... وكان الرد على الاقتراح موسوم بالرغبة العارمة والفرحة التي تنهي تنقلاته في العمل و وتجعله يستقر في عمل واحد.

ولم تمض أيام حتى وجد عرفان نفسه هناك بمواجهة الرجل المقاول الذي منحه السلطة في تمشية العمل وأعلمه بعودته خلال أيام إلى مدينته، واناطة المهمة له... تلك المهمة التي حولته إلى مخلوق يفكر كيف يكون قائداً. يوجّه هذا ويشير إلى ذاك، يصرف وقت العمل في حركة دائبة، ويقترح على رب عمله عبر الهاتف ما يرغب. ومن جانبه كان الرجل من مكتبه في المدينة البعيدة يلبّي ما يقترح، خصوصاً والوارد الذي يأتيه كان مرِبحاً.

ثلاثة أعوام وأكثر بقليل استمر عرفان بمهمته، وكان الرجل يغدق عليه لا سيما والوارد المالي كان مُشجِّعاً.

وفي يوم طلب منه الرجل الحضور لمقابلته، فسافر إلى هناك...

وهناك ضُيِّفَ لثلاثة أيام... بعدها أعلمه الرجل أنّ مشاغله في المقاولات كثيرة، ويفضلها أن تكون قريبة لا تتعدى العاصمة أو المدن المجاورة لها. لذلك اتفق مع عرفان على تولي المهمة بنفسه مقابل أجر نصف سنوي يدفعه لعرفان في وقته. فتكاتبا رسمياً. ووجد عرفان نفسه كأنه صاحب المقاولة، وما الرجل البعيد إلا قابض مال يسير... استمر الحال لعامين عندما تواصل الاثنان عبر الهاتف واتفقا أن تكون المقاولة بالكامل لعرفان مقابل مبلغ اتفقا عليه. كان نصفه بحوزة عرفان جمعه خلال السنوات الفائتة، أما الباقي فوعد بتسديده كل ثلاثة أشهر ولمدة عامين .

ولم يمض العامان حتى اصبحت المملحة تدار من قبله. وانقطعت صلته المالية مع الرجل الذي كان سعيداً بوفاء عرفان معه، ولم يشم منه رائحة الخداع أو الطمع والسرقة الدفينة.

كان نوفل بعمر العاشرة عندما عرف من خلال الأحاديث التي تدور بين أمه وأبيه أنَّ ادارة المملحة أصبحت كاملةً منوطةً بأبيه. وشهد مع الاعوام تطور عملها من خلال وجود شفلين وثلاثة سيارات حمل كبيرة وعدد عمال زادوا من العشرة إلى العشرين، وصار الأب

من عِداد الأغنياء والمتنفذين... غنىً ليس لصالح الأسرة وتطويرها وتحديثها انَّما لتحقيق نزوات وتكريس متعة فردية للأب مقابل حرمان ومعاناة تجاه الأم وابنيها عرفان وسهيلة.

(2)

الصفحة الثانية.. الفتوة والوجع

في سطحِ الدار ينهض نوفل ابن الثالثة عشر عاماً من سريره المصنوع من جرّيد النخل على اثر انتصاب ديك الجيران (حيث الفجر يبشر بتيارات هواء باردة في سطح الدار المنفتح على سماء شرعت النجوم تتلاشى من ديباجتها) واطلاق دفعات من صياحه عِعِعيعو .. عِعِعيعو؛ ذلك الصياح الهاتف لجموع ديكة المدينة للانطلاق؛ فيصيح ديك جبّوري النجّار المنتصب على الجدار الموحل يعلن وجوده (وجبّوري رغم بلوغه الخمسين الا أنه ظل عازباً لا أحد يعرف سرَّ عزوفه عن الزواج)؛ يعقبه ديك أم رحيّم بائعة الحمص المسلوق في رأس الزقاق، يتبعه ديك عزيز غزال الذي أتى به من كركوك بساقين طويلين وعرف أحمر هادل على عينه اليسرى وهو يركض على حافة أسيجة الأسطح يرهب الإناث من الدجاج ويثير تحفز الصبية لملاحقته ومعاقبته حيث النهايةُ تعلن انتصاره عليهم وخيبتهم الكبرى في عجز الامساك به.. صيحتا ديكي بدريّة ونوريّة (وهما صديقتان متجاورتان تفخران بعدم قدرة المُغرضات على فصم عرى صداقتهما) يعلنان وجودهما على بعد عشرات الامتار عِعِعيعو .. عِعِعيعو فتحاكيهما ديكةٌ أخرى على بعد مئات الامتار عِعِعيعو .. عِعِعيعو... مئات، ومئات من الصيحات المستلِمة والمُسلّمة، صيحات تتلاقى مع ديكةِ الحي الشرقي حيث ديك شنّون حربي، وديك سالم چقّات، وديَكة حبيبة الثلاثة المحبوسة في قفص خشبية ملاحقتها لدجاج الجيران أو سرقتها من عبّودي حرامي الدجاج ، وصيحات ديكة عِعِعيعو .. عِعِعيعو، متتالية ومتوالية عابرة الفرات لتتداخل مع تلك التي في صوب القشلة حتى يغدو فضاء المدينة دفقات من الصياح والهياج يلفت انتباه صبية الأحياء فيحاكونهم بأصواتهم الطفولية وحناجرهم الحادة عِعِعيعو.... عِعِعيعو.. اصوات تعقبها اصوات. وصيحات تتلوها وتتقاطع معها صيحات؛ حتى لتغدو المدينة سيمفونية "ديكية" بكورال ديكي لا أحد يعلم متى وكيف تكون خاتمتها.. عِعِعيعو.... عِعِعيعو.. عيـ.... عو.

كل هذا يحدث في دقائق، ونوفل لمّا يزل في سريره وقد وضع قدميه على أرضية السطح الترابية، قصداً في النزول وتناول فطور الصباح.

يهز يدَه استهجاناً لِما يحدث صبيحةُ كلِّ يوم.

وصبيحةُ كلّ يومٍ تُنتَهك نومتَه التي يريدُها طويلةً، طويلة كنومةٍ أهلِ الكهفِ بموجةِ صياحِ الديكةِ الأنذالِ وزعيقِ الصِبْيةِ المَلاعين.

تدفعُ أمُّه بقدحِ حليبٍ أُعيدَ تسخينُه ثلاثَ مرّات وقطعةِ رغيفٍ بقيت من أختِه سُهيلة التي تكبرُه... تطالبه بالإسراع في تناول وجبته والتوجّه الى المملحة لئلا يثير غضب أبيه الذي طالبها بإيقاظه حالما خرج قبل ما يزيد على الساعة.. إنَّ تأخره في الوصول الى مكان العمل يعني تلقي السِّبابَ والشتائمَ المقرونةَ بصفعةٍ أو أكثر على وجهِه من أبيه. يتبعها تأخرٌ في العودةِ إلى البيت والبقاء في المملحة الى ما يقرَب من مغيبِ الشمس كعقوبة لابد من الالتزام بها وإلا سيقضي ليلتَه فيها، يرعبه نباح الكلاب يأتيه من القرى القريبة، وذئاب قد تهاجمه قادمة من عمق الصحراء، تجيء جائعة فليس لها غير أنْ تهاجم البشر وتمزّق اعضاءهم ثم تلتهمهم دون رحمة.. الذئاب لم يرها ولم يسمع عواءها لكن سماعه لحكايات مَن يقضي ليلته معهم من حراس ليليين يتبارون على اخافته بحَبِك حكاياتٍ مليئةٍ بالرعب تجعله يتهجس دخولها عليه في غرفة الادارة التي يتَّخِذُها أبوه مَكتباً له، وهي واحدة من مجموع أربع غرف متجاورة لا تبعث على الطمأنينة، واحدة جُعلت مخزن لمواد احتياطية وعِدد تصليح تخص الشفلات والآليات المستخدمة في العمل، وأخرى لإعداد الشاي والقهوة، أما الثالثة فهي واسعة ومؤثثة تثير ريبة نوفل الصبي إذ كثيراً ما سمع من محادثات تدور بين أمِّه ومِمَّن تأتمنهن من الجارات من أنَّ اباه/ زوجَها يتَّخذها موقعاً للعب الورق هو واقران له تُسفَحُ على طاولته عشراتُ الدنانير يومياً في حين يحرمَها، هي واولادَها، من وجبة مُشبِعة لأمنيتِها في طعام تستطيع القول من خلاله أنّها تأكل كما تأكل العائلات الميسورة، مقارنة بما يدخل من ريع العمل في مملحة هي كالنفط الخارج من بطن الأرض، هبة من السماء الى البشر بلا شقاء ولا عَناء.

ولقد تأكد لنوفل كلام الجارات وهنَّ ينقلن عن ازواجهن انغماس أبيه في لعب القمار وهدره نسبة كبيرة مما يدخل اليه؛ إذ مراراً شاهد في سلة القُمامة التي ينقلها العامل الموكل اليه تنظيف الغرف كثيراً من ورق "الكونكان" الممزق جراء اشارات يضعها أحد اللاعبين على ورقة من الوريقات او لمجرد شعور المقامرين أنَّ الورق صار عتيقاً ويوجب تغييره بورقٍ جديد.. ومن جانبه أيضاً كان نوفل يسمع بتمتمات ويلمح اشارات بين العاملين في المملحة عن السلوك السيء لوالده في لعب ما هو مُحرَّم في مكان رزقه، لم يكلّم أمَّه عمّا كان يرى ويسمع إنما كان يخبئ شعوره بالغضب على والده والامتعاض من سلوك لا يليق به كأبٍ يُعيل أُسرةً يفترض به الاهتمام بها... مراراً شكا لأمِّه أن ما يعطيه أبوه من نقود لا تكفي لشراء لفّة باذنجان وبطاطا بينما اقرانه، حتى الفقراء منهم، يطلبون الشاورما عندما يتجهون للأكل في المطاعم.. ومراراً اطلع أمه بألمٍ وجزع أنَّ صديقه ابن مُصلِّح الدراجات الهوائية الفقير كان يدفع ثمن تذكرة دخولهما الى السينما لأكثر من مرّة عندما يخبره مُحرجاً أن لا فلس في جيبه.. يشكو تمزق ملابس لا تليق ان يرتديها وهو ذاهب الى المدرسة. يطالبها بحثّ أبيه ليشتري له ملابس جديدة مثلما كان يتأسى على شقيقته سهيلة وهو يراها تذهب الى المدرسة بملابس بالية تشعر فيها اخته بالمهانة وقد عجزت من الالحاح على أمِّها في الضغط على ابيها لشراء بدلة جديدة. ولم تكن أمُّه بأحسن حال منه ومن سهيلة، فهي الأخرى عانت الذل والمهانة والتعسف منه. تتألم لرؤية المال يملأ القاصة يوماً ثم تراها في اليوم التالي فارغة، فتصمت على مضض خشية غضبه، وثورته عليها. تلك الثورة التي تكررت عديد المرات. ابتدأت ضرباً واهانة وانتهت بأورام في الوجه وجروح في الاعضاء وتهديد بالطلاق وتسييب الابناء.

يشعر نوفل أنَّ المملحةَ هبةٌ غيبيةٌ لأبيه (هذا الشعور تولّد من تكرار أمّه لشكرها السماء على عَطيةً كهذهِ) تغدق عليه ثروة لم يحسن توظيفها. فهي ثروةٌ تجودُ بها الطبيعةُ، ومالٌ يأتي بالمجّان.. ففي اليوم الذي ترفع الشّفِلات أطناناً من الملح الابيض البلوري الناصع وتُفرغه في حاضناتِ سياراتِ الحمل وتُحدِث حفرة عميقة يحسبها الناظر اخدوداً لا يمكن ردمُه تراه في اليوم الثاني يضئل، والحفرة يتراجع اتساعُها من العمقِ والمحيط؛ حتى اذا مرّت سبعةُ أيامٍ أو أكثر بقليل فوجىء هذا الناظر بانحسارِ الحفرة وارتفاعِ مستوى الملحِ لدرجةٍ يغدو فيها تلّا يَنتظرُ الشَفِلات مُجدّداً برفعه وتفريغه في أحضان السيارات.. أيُّ هبةٍ هذي التي تغدق المال على صاحبها بلا جهدٍ ولا مشقّةٍ!

ولكن لماذا لم يُحسن هذا الموهوب التحكّم الجاد بما ينال، والتصرّف الكيّس بما يقع بيديه؟ .. ورغم ذلك كان نوفل يتمتم في سره ويتداعى: " أنا رافض لسلوك أبي؛ امقت فعله. ومع هذا فهو أبي. عليَّ احترامه واظهار طاعتي له؛ لكن كيف لي بالصمت وانا ارى تجنّيه اليومي؟.. كيف أغضُّ النظرَ دون اعلان اعتراضي عليه، واظهار امتعاضي منه؟!"

عند العودة من المملحة تتوقف السيارة التي تقلُّه والركاب المتوجهين إلى المدينة مقابل مُجمّع المحاكم، جوار خزان الماء المعلق في الهواء والفارغ مُذ وجِّهت له عدّة رشقات من طائرات الأباتشي إبان حرب استعادة الكويت لأهلها أوائل تسعينات القرن العشرين باعتباره هدفاً عسكرياً قد يكون صدام حسين وظّفه بحيلةٍ من حيلهِ ليكون مَشجباً عسكرياً مُعلقاً لا يخطر على بال الاعداء.

يسرع في خطاه كي يدرك بيته ويطالب أمّه بفطورٍ من يدها بديلاً عن فطور يصنعه الحارس في المملحة.. يعبر تقاطع الشوارع المؤدي احدها الى الجسر الحديدي فيدخل سوق خضار تعمّه الفوضى استحدث قبل بضعة اعوام.. هناك تستقبله وخمة السوق بسقيفته الهابطة وارتال الذباب الهائمة على الخضروات وأقفاص الدجاج.

يمرُّ مسرعاً آمِلاً التخلص من وخمة الخضار المُكدّسة ورائحةِ دمِ الدجاج المذبوح الباعث على الغثيان فيتلقفه سوق بيع السمك برائحته الزفرة المُحفزة على القيء وواجهته تلال العفن والازبال الجامعة لمخلفات السمك المتفسخ من أحشاء ورؤوس مقطوعة مرمية، لا يمكن تقبلها حتى من قبل المتسولين طالبي الصدقات... يحثّ الخطى متجنباً قطرات زفر يُحدِثها الباعة وهم يرشّون بأكفّهم الماء من الاحواضِ حاوية السمك، غير مبالين باحتمالِ تلوث ملابس المارة. حتى اذا خلّف المكان وجد نفسه مُجدّداً في سوق خِضار آخر.. ومن جديد يستقبله الذباب والهوام الطائّة ويسقط في براثن زحام باعة متناثرين بلا نظام.. يجاهد في التنصّل والخروج بغية ادراك فمِ الزقاق المؤدي لبيته (لطالما ترجّى أمّه أنْ تكلّم اباه سعياً للانتقال إلى الأحياء الجديدة. فما لديه من رزق لقادر على شراء افضل البيوت)... هناك تستقبله أمُّه بحنينها وعطفِها ورقّتِها معه. تُعِدُّ له الشاي مَشفوعاً برغيفِ خبز يتناوله بلذاذةٍ مغموسةٍ رغم فقرها كوجبة فطور يفترض اكتمالها بما يغذّي الجسد بمتطلبات يفاعته.

وفي لحظة فراغ يهمس في اذن أمه:" أمّي؛ الرزق الذي يدخل لجيب أبي مثل الساقية الممتلئة بالماء، والمملحة تُموّن عدد كبير من سيارات الحِمِل؛ هذا يعني أبي غنيٌّ؛ غني جداً.. فلماذا لا اتمتع بمثل ما يتمتع به اولاد الاغنياء؟ " يقولها بجزع وتحسّر.

لا يلمسُ من الأمِّ جواباً. ولا يريدُ اثارةَ امتعاضها، وربّما شكواها. فقط يشاهدُها ترفع استكان الشاي الفارغ وبقايا الخبز فتركنهما على جانب الحوض الاسمنتي، وتستدير لتدخلَ غرفتَها بمصباحه الاصفر الباهت، الكامد، الشحيح.

انصراف الأيام وتعاقبها عليه، انشغال أبيه بالمملحة مصحوباً بمتعِه دفعاه للبحث عن وسيلة للهروب. فصار يقضي نهاراته مُنشطرة على المدرسةِ ومصاحبةِ اقرانٍ وجد بعضاً منهم ينحون باتجاه صرف الوقت بصيد السمك.. صنارة يرمونها الى النهر ويدعون المتعة للتجسد والجذل كي يكون مصاحباً لهم. ومع حيان الغروب يتجهون الى السينما لمشاهدة فيلم جديد (اعتادوا الاشتراك كل اثنين ببطاقة دخول يقبلها منهم قاطع التذاكر كتشجيع على تواجدهم أقرانا، وفي رفقة مُحبّبة.).

الرفقةُ والصُّحبةُ الجماعيةُ قادته الى أنْ يكون ضمنَ گروب اختارته ادارة نادي المدينة الرياضية ليعسكر مع مجاميع لمدن عراقية متعددة وببرنامج كَشفي يُشجّع على التعاون ويسعى لخلق مُجتمع شبابي يؤثر الخدمة العامة ويضئل منافع الذات.

عندما يراجع نوفل تلكَ الأعوام يتألم على انعدام المخيمات الكشفية ومعسكرات الشباب في الوقت الحالي، مثلما يحزن لرؤية المدارس ينحطُّ فيها موضوع الرياضة ويموت درس الفن... اليومَ البلادُ منشغلةٌ بداعش ووحشيته، منهمكةٌ بمقاومته وايقاف مدّه السرطاني المبني على القتل الجماعي نحراً أو رمياً من أعالي البنايات، حَرقاً في اقفاص أو سحقاً تحت عجلة، تهديداً بالموت أو وعيداً بالوبال.. يتأسى وهو الذي وِعِد واقرانُه في المحاضرات التي كان يتلقاها في المخيمات قبل اكثر من ثلاثة عقود بمستقبل تكون الشمس قرينةً لهم في مسارهم نحو العلى، والليل سيتراجع بعتمته ويتقدم النهار بهيّاً، وضاءً، مُشرقاً... وتبقى ذكرى صحبته والاقران أجمل ذكرى يعتزّ بها ويطريها حين يستدعي الحديث سردها على المسامع.

(3)

الصفحة الثالثة

نوفل .. يقرأ الحياة

في صباحات الأصياف الساخنة، بعد ان تجاوز الثامنة عشرة، وعلى هدي طريق مُتربٍ تتناثر على جانبيه اعشاب خضراء يانعة يقودُ إلى بستانٍ محمد علي السلمان الظليل يتَّخذ نوفل عرفان مكاناً معشوشباً يجاور نخلة بريم، عذوقها تتهدل ذهبية كشعر رومي شنايدر التي شاهدها في سينما المدينة قبل أيام في فيلم "السيدة كالف" المرأة العاملة التي تقف في احدى اللقطات أمام المرآة تستعرض جمالاً أخاذاً اسقط في حبائله الرأسمالي الباذخ الثراء وجعله متيَّماً لا يقوى على فراقها.

يفضل الجلوس مُمدِّداً ساقيه على العشب الطري ومفضِّلاً خلع حذائه الجلدي الذي فقد لمعانه بسبب سلوكه الدرب المُغبَر قبل ولوجه البستان.

الشمس تتبارى داخله بسهام ضوئية تخترق المجالات الفارغة بين سعف النخيل فتصيب عينيه، لكنّه يتفاداها بمكان ظليل جداً وفيء محبب يوازي شعوره الذي قاده إلى المكان. يستعين بجذع شجرة توت فيسند ظهره ويترك لقدميه التحرر من الحذاء.. يدسُّ يده في جيبه فيخُرِج مَظروفاً أزرقَ عليه طابع يعرض صورة الرئيس عبد الرحمن عارف ومناسبة اصداره تشير إلى " الذكرى الرابعة لثورة 18 تشرين 1963 " .

يقرأ اسمه المكتوب بحبر ازرق والعنوان الذي وصله؛ مُدون فيه دائرة البلدية واسم صديقه سميع كوسيط مؤتَمَن يوصل اليه الرسالة.. وعلى الغلاف الخلفي اسم المُرسِل يقظان علي، وعنوانه عمادة جامعة بغداد – شعبة الاقسام الداخلية.

يبتسم.. كأن يقظان الاسم تحوَّل الى قامة يقظان لحماً وعظماً ومشاعر سيقص عليه ما يستلطفه.

فتح المظروف ليقرأ فحوى الرسالة، للمرة العاشرة أو يزيد (لا يعير همّا للعدد بقدَرٍ ما يُقدِّر استعذابه للقراءة كونها مُحفِّزةَ الذاكرة، ومُسترجِعة براءات الايام لخوالي).. يقرأ ليتشبَّع بما كتبه يقظان من تحيات واشواق، مقرونةً بذكرياتٍ عاشاها سويةً يومَ التقيا في مُخيمٍ كشفي تضمُّه حدائقُ المشتل في ضواحي بغداد حيث قضيا دورة تدريبية لتنشئة الفتيان على حياة الجماعة والتآلف وتحمل المسؤولية والنقاشات الباعثة على احترام الرأي والرأي الآخر من اجل اعداد قادة المستقبل. مُخيَّم جمعَ ستين فتىً من مختلف الألوية العراقية. وكان معه ثلاثة من فتية الاردن ومثلهم من الفلسطينيين والسوريين... وجاءت دورتهم عقب دورة تدريب عسكري التمَّ فيها مائةٌ من الطلبة الجامعيين رشحتهم جامعات بغداد والموصل والبصرة على أمل أن تتوالى الدورات لعدد آخر. جاء ذلك اثر مقترح تقدمت به وزارة الدفاع إلى وزارة التعليم العالي بضرورة تعرّف الطالب الجامعي على استخدام السلاح فالوطن بحاجة لأن يكون شبابه على درجة من التهيؤ لدخول معركة مُفتَرَضة لاسيما والمعلومات السرية المنقولة إلى شعبة

الاستخبارات العامة في العاصمة بغداد تشير إلى أنَّ الصهاينة يدربون شبابهم على تعاطي السلاح واستخدامه، منطلقين من أنَّ لا أمان للعرب طالما هم يعيشون داخل دائرة محيطهم وهم أدرى أنَّ وجودهم وجود غاصب ومحتل انتهك أرض غيره وأقام دولةً راح يجاهر بأنها دولة الحضارة وسط مد من التخلف البشري العربي.

" صديقي الغالي نوفل.. أرجو أن تكون بخير.

ما زالت ذكرى لقاءاتنا وقضائنا الاسابيع الثلاثة في المخيم الكشفي قبل عشرة اعوام تراودني، فأعيش معها بكل نهاراتها ولياليها، بكل الجهد المبذول والشقاء الذي عانيناه جراء التدريب ومفرداته الصعبة والقاسية التي أريد منها جعلنا رجال المستقبل الاشداء.. ما زلت اترجم بوحك لي عن تصرفات أبيك ولامبالاته تجاهكم والانانية التي يتصف بها فتسبب بإهمالكم وعدم تلبية حاجاتكم، وخصوصاً ما تعانيه أمك من تماديه في تهميشها واحتقارها، والنظر إليها كبقرة حلوب أو خادمة منزل، أو أداة لا قيمة لها من أثاث البيت.. إزاء ذلك كنت اقدر معاناتك بألم حارق يكوي قلبي، وكنت اتعاطف مع ما تقوله وأحاول تهوين الأمر.." أتغير أبوك أم ما زال كما وصفته لي؟".. ومن طرفك كنت تشيد بأبي وتحسبه رجلاً متنوراً ويحسب للمسؤولية وتشبهه بالملك حسين، ملك الاردن، الذي يجد ويجتهد من أجل اسعاد شعبه كعائلة كبيرة تستحق الاهتمام، وأنت تعرض عليَّ قصاصة من جريدة كانت تتولى الحديث عن ذلك فوجدتها كما يبدو مادة للمقارنة بين الملك الحاني على شعبه وأبيك القاسي عليكم.

أذكر أنَّ الصيف رغم حرارته العالية كان صديقاً يمنحنا ساعات سَحَرِه فرصة للحديث الثنائي نسرقها من واجب النوم الاجباري قبل أن نستلم واجب الحراسة في باب الخيمة أو في محيط مخيمنا الكشفي.. كنت تحدثني عن رغبتك في أن تكون طيّاراً؛ كابتن تقود طائرة من طائرات الخطوط الجوية العراقية لتكون السفير الفضائي للوطن، ومع المهمة تشاهد أكبر عدد من مدن ومطارات الدول. كنت تعشق السينما وتشاهد المدن البعيدة، مدن الشمال من الكرة الارضية تعرضها الأفلام فتتيه في حلم أن تزورها فتسير في شوارعها وتبصم اقدامك على طرقاتها كما حدثتني. كنت تفصح عن عشقك للبحر وتحفظ اسماء العديد من السفن واسماء بحارة أشداء، كان منهم ماجلان الذي تحسبه رمزاً مهماً للقيادة البارعة، وربّاناً مغامراً صمّم وخطّطَ بشجاعةِ الاشداءِ للوصول إلى أبعد الآماد ليعود بالاكتشافات الخرافية غير المسبوقة ويحقق حلمه في الدخول الى مملكة التاريخ رجلاً فذّاً.. ولتأثركَ به كنت تحيّذ شدَّ منديلك على رأسِكَ وتعقده من الخلف وتسحب كُمّي قميصِك إلى ما بعد المرفقين تمثلاً به بينما تستعير سكين المطبخ فتضعها تحت الحزام في جنبك الايسر؛ وتشير لمن يسألك عنها أنّك تستخدمها لقصِّ حبال تحتاجها خيمة هنا وأخرى هناك، أو تقول أنّها لضرورات الطوارئ يستعملها المستكشف لحماية نفسه بمواجهة موقف يقتضي التعامل بالسلاح الابيض.

ههه..! ما زلت اذكرك وأنت تلبس ذلك المعطف الصوفي، الازرق الداكن، الطويل جداً الشبيه بمعطف "ارتِفِل دوجَر" الفتى المحتال، المخادع، اللص في فيلم "اوليفر تويسْت" الذي عرضته ادارة المخيم ضمن برنامجها الاسبوعي في مشاهدة فيلم ابطاله فتية

يعيشون المغامرة.. وأذكر أنكَ غضبت في البدء عندما لقَّبوكَ بذلك اللقب وكدتَ تشتكيهم للإدارة وهددت بترك المخيم أو الهروب منه حين يتم منعك واجبارك على البقاء لكنّكَ صرفت الأمر (بعدما اوضحتُ لك انَّها مجرد دُعابة ستنتهي بمرور يوم او يومين؛ وأنَّ ذلك من جماليات الرفقة واختراع المفارقة التي تحصل ما بين الاصدقاء)... أذكر أنك أذهلتهم بعد أسبوع من وجودنا في المخيم وأذهلت مدرب التربية الرياضية الاستاذ جودت عندما جاء دورك لتؤدي حركة رياضية فقفزت الى العُقلة وجعلت ذراعيك يحيطان بعمودها الحديدي الأُفقي ورحت تدور وتدور فكان جسمك كذراع مروحة تتحرّك بأقصى سرعتها بحيث صار مثل عمود يدور بسرعة فائقة. وقتها حسبنا أنك لن تستطيع ايقاف دورانك الهائل، فإذا بك تصحح تصورنا فتروح تضئل من الدوران رويدا رويداً، وشيئاً فشيئاً حتى توقف العمود أو ذراع المروحة وقفزت الى الارض لنهبَّ اليك نحن اقرانك لنحتضنكَ ونهنئكَ ونعلن فخرنا بك بينما اتسعت دهشة الاستاذ المدرب فاندفع يربت على ظهرك، ويُسمِعُكَ عذب الكلام الذي تمنيناه يسكبه في آذاننا تكريما لنا، وتبجيلا بنا."

يتوقف عن القراءة اثرَ سماعِ ضَجَّةِ فتيةٍ مرّوا جوار السور الطيني البستان، متجهين صوب النهر وهم يتحدثون عن اسماعيل ياسين وهو يأكل صابونة الغسيل، وهو يكايد بحبوح افندي، وهو يخرج عن صف الجنود السائرين في اسلوب الرتل لعدم فهمه الايعاز المنطلق من العريف بسبب بلاهته وسذاجته فيكركرون مطلقين النكات وعبارات السخرية، مصممين على الدخول لمشاهدة الفيلم للمرة الثالثة؛ فقد أحبوا هذا الفنان لحركاته الكوميدية الباعثة على الفكاهة.

يريح رأسه على جذع الشجرة ريثما تتلاشى ضحكات الفتية ونكاتهم ومداعباتهم، فله مع ما تبقى من ذكريات يقظان الراقصة على الورق رحلة جميلة تتناغم معها وتتناغى اصوات البلابل، وضجة العصافير.

" كانت لديك وأنت تهمس في أذني رغبة عدم البقاء في مدينتك، مُفضلاً السفر والرحيل، مُحبّاً التجمُّعات واللقاءات التي تكرِّس العمل الجماعي؛ تشيد بالتواصل وتحسين الحال عبر النقاشات الفاعلة... كنت تتنبأ بأشياء تحدث بعد وقت فنعجب كيف واتتك الصورة لما سيحصل.. كانت لديك حالة استبصار تنم عن ذكاء، وكنت تتحدث عن ضرورة التغيير، عن التطلع الى أمام لا البقاء نراوح في مكاننا؛ كنت تبغض كل ما هو ماضٍ. وحين نعيب عليك رؤياك ترد بشيء من الوعيد:" انتظروا القادم وسترون كيف ستتعثرون وتتكفئون وتنطفىء احلامكم."...الآن أؤكِّد استبصارك، وأُكبِر فيك تنبؤك... كم كنت تسبقنا في التفكير، وكم تقدمتنا في التوقع!"

تنتفي رغبةُ مواصلةِ القراءةِ فيطوي الرسالةَ، مُكبراً في صديقه هذا الاسلوب الشيق والرشيق من الكتابة والذكرى التي تدفقت متسلسلة ومتأججة بوعي مثقف.

ينهض، ليبرحَ البستانَ مُخلِّفاً الطيورَ في أوج نشاطها، وخطفها من نخلة لنخلة، ومن شجرة رمان لشجرة توت.

في القلب جوىً، وفي الروح حزنٌ.

إنَّ ما يراه لا يبعث على الأمل؛ إنَّ ما يتلمَّسه من الواقع فضاءً مضبباً وأناساً تسير في زحمة الحياة غير مدركة بالمصير أو هي ملَّت التطلع الى الشمس حتى عميت فآثرت العيش على الهامش... يتجنب دوس الزروع الناهضة توّا من قلب الأرض متخذاً ممراً متربا قاده لمبارحة البستان. يلمح من بين شجيرات رمّان وكثافة اغصان واوراق سوابيط العنب فلّاحاً يتّجه صوب ساقية ماء دافق كي يحول مجراها إلى بقعة مزروعة بالخس.. لا يدري كيف اعاده منظر الفلاح صورة خاله جواد فهبَّ يلقي التحية عليه، ويرجو له موسم انتاج يدر ما يسعد القلب ويحسّن الحال .

ترك البستان خلفه، ومدَّ كفَّه تتحسس رسالة يقظان خشية أنْ تكون سقطَت من جيبه. يخطو وفي ذهنه فكرةُ اتخاذِ قرارٍ قريباً؛ يتوخّى فيه تغيير حاله، فقد شرعَ المكانُ يضيقُ، والرؤيةُ داخلُه تَّتسع.

في طريق خطوه باتجاه البيت راح نوفل يسترجع تلك الظهيرة من اليوم العشرين من تشرين الثاني 1973 المحملة بالقلق وهي تنقل آخر اخبار التفاف الجيش الاسرائيلي على القوات المصرية في ما سمي بثغرة الدفرسوار ومحاصرة تلك القوات بغية اجبارها على الاستسلام واعلانها حرباً خاسرة تُضاف للحروب العربية الخاسرة دوماً.

كانَ وخاله جواد الذي تتهافت اعوامه المواربة على الاربعين برأسه الأشيبَ ورقبته المتغضنة، وبشرته المصفرَّة يجلسان على رصيف الشارع ينتظر مجيء الصحف يأتي بها متعهد التوزيع من بغداد ليشرع الباعة المتجولون ببيعها في الشوارع والطرقات والمقاهي.

يذكر قول خاله، وقد اعتراه شعور الخذلان مصحوباً بالكآبة وتردي الحال وهو يستذكر خدمته العسكرية يوم كان جندياً احتياطياً خلال فترة هزيمة حزيران 1967: " سفحنا شباناً في حروب لا طائل منها، لا هدف إلا اشباع نزوات من جاءوا ليثبتوا بطولات تجبر التاريخ على تدوينها لتُكتَب بأسمائهم. لم يكونوا يعيرون همّاً لمَن يعيش مع الجرذان والجرابيع ودود الارض في الملاجئ، لم يكونوا ينظرون لنا على أنَّ لنا قلوباً ومشاعر ومطامح. كنا نخشى التذمر، نخاف الاحتجاج لأن الموت سيكون يسيراً امام حكام يرونك مُلكاً لهم وخادماً من جوقة خدّام أو خروفاً من قطيع خراف يسمّونه الشعب."

اعترى نوفل شعورٌ بالمذلّة لسماع كلامِ خاله فراح لحظتها يستعيد حكاية قرأها عن مدينة نرويجية تمردت قبل قرونٍ على ملكها فما كان من الملك الا أنْ اقتحمها واحتلها وعيَّن كلباً محافظاً لها تنكيلاً بأهلها واعلان احتقاره لهم.

يصيخ السمع للخال وهو يفضي بمرارة:

" لقد كان إلى جانبنا ذلك الجندي القادم من بلدة الفاو وهو يمنّي النفس بالتسريح من الجيش، فهناك في اقاصي الجنوب تنتظره ريحانة، فتاة تحدَّث لنا عنها كثيراً، تعرَّف عليها وهي تمر مع ابنة خالته: شابتان تنعمان بالزهو وترتعان بحب المسير في المدينة وقطع الشوارع ودخول السوق لشراء ما يعجبهن من فساتين وعطور، وفي السوق يشترين أيضاً انواع من المَيك أب ليمارسن دور الزوجات اللاتي يصبغن وجوههن بالمُرطّب ويطلين

الشفاه بالروج الاحمر ويكحلن العيون بالكحل والرموش بصبغة المسكارة. ثم اذا اشبعن نظرهن وهن يتطلعن بالمرآة ويحلمن بالزوج الذي يضمهن إلى صدره ويشبعهن بعبير شفتيه وفواكه روحه هرعن الى صنبور الماء يزيلن كل ما يدينهن امام الوالدين والأخوة فتأخذ رغوة الصابون مهمة محو آثار الاثم بنظرهم، وعودتهن فتيات ملتزمات لا أثر لدلائل ارتكابهن الفعل المرفوض اجتماعياً في بلدة يترصَّدُ اهلُها فعالَ البنات ويلاحقون بألسنتهم من يضَعنَ على جباههن آثار ارتكاب هفوة أو خطأ عابرٍ ناهيك عن الفعل المقصود كتحدٍّ تمارسه احداهن حين ترى أنَّ ما تفعله لا يشكل خطأً ولا جريمة تعاقب عليها انما حق.. وأذ مرت عدة أيام وجاءنا من الاجازة ليفضي بما آلم قلوبنا وجعلنا نواسيه بدفقات الجزع والوجع والمواساة. جاء ليحكي لنا عن انطفاء الحلم وموت الجمال في قلب المدينة. جاء ليقول إنَّ أيامَ ريحانة معدودة، وإنَّ حلمهما المشترك هوجم بمخالب المرض اللعين، السرطان. إنَّ ريحانة التي التقيتها قبل أيام ليست ريحانة التي كنت التقيها في اجازاتي السابقة.. ريحانة الآن عاجزة عن الكلام. كلَّمتني بالإشارات ، وحاورتني بدموع تنزل فيضاً من عينيها. أما أناملها التي كانت تحتضن كفّي فتخشبت؛ صارت عظاماً ببشرة صفراء. " يقول ذلك ويطأطئ رأسه، يترك لعينيه حرية تفجير الدمع، ولحنجرته الحشرجة.

ننهضُ لنلتفّ حوله ونواسيه. فليس لدى الجندي في جبهات الموت سوى التشبّث بحبيبةٍ يحلم أنْ سيتوجّه اليها في اجازته ليشحن نضيدةَ عزيمتِه الموشكةِ على النضوبِ ويرجع إلى وحدتِه العسكرية بشيءٍ من الأملِ ودفع الموت المتربص به إلى الخلف قليلاً.. لقد أوجعه مَصابُ ريحانة أيّما وجع، فراح يكرعُ العرقَ ويُكثِرُ من شربِه، سواء في اجازته أو في تواجده في وحدتنا العسكرية. كانت القناني تَصله سرّاً من المتعاطفين مَعه والمتألمين لجرحه العميق.

ولقد هام على وجهه سكّيراً يلفُّ طرقات مدينته الفاو بعد موتِها، فارّاً من وحدته العسكرية.

في كنيته دوّنَت حالةُ جنونِه فاعتُبِرَ غيرُ صالح للخدمةِ العسكرية.. صار اسم ريحانة كاسم ليلى على فمِ قيس بن الملوَّح.. صار اسم ريحانة كتميمةٍ يحملها على زنده تقيه من عاديات الصَّحو، وتجعله في هيامٍ دائمٍ لا يريدُ الفكاكَ منه.

(4)

الصفحة الرابعة

الغياب

يترك نوفل عرفان المدرسة مُخلَّفاً وراءه صورتين له تحتويهما عارضة زجاجية تعلن اوائل الطلبة للمراحل الدراسية السابقة صنعتها ادارة المدرسة تعبيراً عن فخرها بأبنائها المتفوقين، ودعوة خفية لتحفيز عموم اقرانهم على الجِّدِّ والجُهد والتميُّز؛ فالذين يُذكرون

ويدخلون في الذاكرة الجمعية هم اولئك القلّة الجّادة والمجتهدة؛ فلكلِّ طالبٍ الحقٌّ في أنْ يكون متميزاً بجدّه واجتهاده فتُلصَق صورته في صندوق المتميزين المزجج فيصبح مبعث فِخار لأدارته المدرسية وللمسيرة التربوية كونه استطاع بذكائه ومثابرته أن يُشار له بالبَنان؛ وما الذين يُشار لهم بالإعجاب والإكبار إلا أولئك الذين وضعوا التحصيل العلمي هدفاً والمعرفة مآلاً.

إنّ عليه اجتياز امتحان البكلوريا؛ فهو الآن في الثالث المتوسط. وما عليه إلا القفز الى المرحلة الاعدادية بدرجات تؤكد اهليته العلمية بجد وتصميم؛ المرحلة التي يغدو الطموح فيها من نافلة الاصرار على حيازة المبتغى.. والمبتغى يتطلب التعالي على المغريات والتفرغ ذهنياً لدروسه، مع الاستمرار في معاونةِ أبيه بإدارةِ شؤونِ المَملحة، لاسيما وابوه حثّه على مسك سجل تموين سيارات الحمل بالأطنان وتدوين الأسعار وجمع المبالغ وصولاً إلى الحصيلة النهائية مقرونة بمتابعة شؤون العمال ووضع مبلغ يومي لتصليحات عطلات يحتمل حصولها للشَفِلات أو لإدامة المقالع التي تتولى آلاتها قلع الحجر بوصفه أكبر عائق في عملية استخراج الملح نقياً خالياً من الشوائب المضرة لتركيبته. وهي حالة يخشاها المتعهدون المتعاملون بالملح مع زبائنهم في عموم مدن البلاد.

يصرف جلَّ وقت ما بعد المدرسة في ادارة المملحة ثم يعود مع الغروب لتناول العشاء... ما يتبقى من الوقت، قبل اتجاهه الى النوم، يكرسه لقراءة دروسه واعداد واجباته.. وهو وقت لا يدخل في عقول اقرانه عندما يسألونه مندهشين:" كيف تحصل على درجات التفوق وأنتَ المشغول دوماً بالمملحة؟"؛ ولماذا لا يوازونه في التميّز وهم الذين يصرفون اضعاف ما يصرف من وقت في المطالعة والحفظ... لم يكونوا يدركون أنَّ الذكاء المجبول عليه الفرد المتميز ومعه التركيز الشديد على مادة القراءة يؤهلانه للحفظ السريع والأداء المُبهِر أمام أساتذته وزملائه.

يتذكر زملاؤه الطلبة ذلك الموقف الذي لم ينسوه عندما شاهدوه مرةً يرفع يده في مادة الهندسة ليشير الى الاستاذ أنَّ ثمّة حلاً آخر للتمرين. وعندما نهض واقترب من السبورة راح يؤشر على المُجسّم الذي احتوته السبورة ما أدهش الاستاذ للطريقة المختصرة والسهلة التي حل بها التمرين، ما دعا الاستاذُ الطلبةَ إلى اعتمادها بديلةً عمّا هو في الكتاب المدرسي المقرر.

(5)

الصفحة الخامسة

الهروب.. فعلُ العقل

في احدى لقاءاتي التي جمعتني ومالك في نفس المقهى كشف لي إنّ فاصلة زمنية استغرقت اشهر قضاها نوفل في مدينة الديوانية غيَّرت من مسار حياته، كما قال. فقد

أعلمه يوماً أنَّه سيزور عمّه هُشام الذي يعمل موظفاً في دائرة ضريبة العقار، والذي يعيش عازباً في شقة بغرفتين وصالة صغيرة، وشرفة تشكل له نافذة مفتوحة يجلس فيها ليلاً فيطل على حركة المارة ويتشبّع من السكون عندما يفرغ الشارع.. كان ذلك الشارع يقود إلى كورنيش نهر الديوانية الذي بمثابة نهر فرعي ضيق لا يتعدى عرضه العشرة امتار.

كان عمّه من الذين اعتقلوا بشبهةِ الانتماء للحزب الشيوعي نقل من الديوانية الى سجن الحلّة المركزي مع أنَّه لا انتماء له، ولم يؤثَ على اسمه في اعترافات كانت تنتزع من السياسيين معتنقي الفكر الأممي، لكن تكريس الشبهة والاعتقاد بالانتماء حصل من باب افضائه العلني المتكرر في المجالس والملتقيات بعلمية الفكر الماركسي وضرورة أنْ يقرأ كل انسان ذلك الفكر وجذوره وتطلعاته من أجل الارتقاء بوعيه والابتعاد عن السقوط في هوة خرافات وتهويمات لا حدَّ لها تنمو وتكبر وتهيمن في فضاء الجهل وضعف المعرفة، فسيقَ مع مجموعة من السياسيين الى سجن الحلّة.

في سجن الحلة وحادثة هرب الشيوعيين الشهيرة منه عام 1967 جرى، كما قال مالك، بتخطيط مُحكم وتطبيق دقيق عُزيت فكرة خطة الهرب لِعم عرفان؛ فقد وجد فيه السجناء الذكاء والدراية والصلابة، واستطاع بفعل كاريزما كان يتحلّى بها كسب صداقتهم ومن ثم تأثرهم به إلى حدٍّ اقناعهم بالهرب(ومَن مِن يكون في قفص مسلوب الحرية لم يفكر في الهرب والتحرر والانعتاق؟)، عارضاً مخططاً أساسه حفر نفق بسبعة عشر متراً وارتفاع خمس وسبعين سنتمتر يوصلهم الى كراج الحلة الرئيسي؛ ومن هناك يستطيعون الفرار صوب أماكن يرونها آمنة.

اقنعهم أنَّ الهرب سيحصل بنجاح واتقان إنْ حافظ الجميع على السريّة وجندوا جهودهم للعمل وتحلوا بالصبر.

وكان لهم ما أرادوا.

إذْ ما أنْ صرفوا ما يربو على الشهرين حتى وجدوا أنفسهم عند بوابة الحرية العريضة والواسعة؛ فكانت ليلة السادس من تشرين الاول عام 1967 بمثابة الحد الفاصل بين السجن والامتهان من جهة وبين الحرية والشعور بالإنسانية الحقَّة من الجهة الأخرى، وإن تواصلت الملاحقة لهم، والبحث عنهم بلا هوادة.

(6)

الصفحة السادسة

الخدمة العسكرية.. الحروب تتوالى

تعويق نوفل في ساقه

-" ولكن ما هذا العوق الذي يعتريه؟.. أفيه ساق مبتورة أم عوق ولادي؟"

تكدَّر مالك لسؤالي، قبل ان يرد على لهفتي.

((ما في نوفل من عَوَق هو ما في الالاف مِمَّن تشاهدهم في الشوارع والطرقات والملتقيات.. إنَّها ضرائبُ الحرب يا صديقي.. مَن لم تلتهمه نار الحرب ويبقى حيّاً لابد أن يدفع ضريبةً بقائه يتنفس.. محظوظون جداً من خرجوا أصحّاء بلا عاهات من الحروب المتوالية التي مرت على العراق؛ محظوظون جداً وجداً؛ وجداً.

أذكر احتلال الكويت وهزيمة جيشنا في الحرب الذي قال عنها صدام أم المعارك ؟... في أم المعارك كان نوفل عرفان مع مئات الآلاف المنهزمين من الحرب، يتركون مواقعهم المكشوفة لطائرات التحالف التي ارادت لصدام ان يكون أكبر مهزوم في التاريخ، وللجيش أن يستحيل نثاراً بشرياً لا يعرف أين يلوذ، وكيف يتَّقي هول النار الذي تقذفه الطائرات المغيرة فوقهم.. كان نوفل يشاهد أقرانه من الجنود، آلاف تلتهمهم النيران فيحترقون ويُشوَون، وآلاف أُخر تتطاير اشلاؤهم وتتناثر بقاياهم على مسافات بعيدة تحدثها الصواريخ الموجهة بإتقان وبهمجية سادية خرقاء... ولحد هذا اليوم، وكلما سُئل نوفل عن بقائه حيّاً يرحل في قاطرة ذهول تأخذه لدقائق قبل ان يفقه وجوده ويتحسس اعضاءه، قبل ان يرد أنه لا يتذكر ما حدث سوى انه عندما صحا على نفسه ينزف بشدة من ساق تترهل بسرواله الكاكي الذي غمره الدم وهو يهرول متعثراً باتجاه مركبة زيل امتلأت بالجنود الباحثين عن السلامة، ورمى أحدهم نفسه من المركبة شاعراً بالتعاطف، وبالأخوة الانسانية تدعوه للقيام بواجبه فحمله على ظهره وهرول للوصول الى المركبة التي وقفت للحظة كي يصعد به؛ ثم وجوده في مستشفى البصرة العسكري مهشم الساق، خالها أولَ حينٍ مبتورة... مَن كان ذلك الجندي الشهم ؟ لا يدري نوفل، ولم يشاهده أبداً ليشكره.

(7)

الصفحة السابعة

الحربُ .. لافتةُ الدَّمار

بصورته الكئيبة، وقوامه المشوه يمشي نوفل صحبتي. صارت قراءاته تتوجه الى الكتب التي تَتَّخذ من الحرب ومآسيها موضوعاً.. يذكر لي عناوين كتب قرأها، تعرض معاناة الانسانية ووجعها الدائم جراء حروب قذرة وقادة مهووسين بعظمة دخولهم التاريخ من باب الحرب والانتصار لا من باب الإعمار والبناء، فيقول: اقرأوا " كل شيء هادئ في الميدان الغربي" للألماني أرِش ريمارك ،" الساعة الخامسة والعشرون " للروماني قسطنطين جورجيو ،" المطر الأسود " للياباني ماسوجي ايبوسي، "صمت البحر" للفرنسي جون برولر؛ مثلما أشار لأفلام قرأ عنها في الصحف وشاء القدر ان تعرض فشاهدناها سوية، كان منها فيلم " الجسر The Bridge " وهو يصور المراهقين الألمان الذين اشبعوا بغريزة عظمة ألمانيا لكن النهاية كانت مريرة عندما انهزمت النازية التي غسلت الادمغة وماتت شر ميتة. كما شاهدنا فيلم "أم شجاعة" للألماني بريخت وهو يصور لوعة الأم التي تجد نفسها واسرتها في أتون الحرب العالمية وكيف كانت تجاهد من أجل البقاء في الحياة فلا تدع الحرب بجحيمها ونارها السعير أن تلتهمها والاسرة كما التهمت الملايين.

لقد وجدتُ وعيه يزداد واعلانه عن ضرورة وقوف الانسان بوجه الظلم والعسف وعدم الخضوع والخنوع لشهوات الحكام ونزواتهم المريضة وأن لا يستكين... تقدم عليّ بوعيه، فبقيت ومن معي من الاصدقاء نراوح في مكاننا: نقرأ الصحف، ونجلس في المقاهي نتداول أموراً لا أهمية لها بينما راح هو يكتب، وينشر.. وتتحلق حول منشوراته لهفات الشباب وتطلعاتهم لوطن فيه مواصفات القابض على الشمس وقلبه يكتنز بالنور.

صارت الهوَّة واسعة بين عالمه الباحث عن كل ما يسعى لغد جميل وبين عالمنا الذي لا يتعدى تناول لقمة العيش والاستسلام للقدر.

القسم الثالث

(1)

أيَّتُها الطفلةُ التي تقرعُ أجراسَ الحبرِ في قلبي

من نافذةِ المقهى ألمحُ عينيكِ الجميلتين

من خلالِ النسيمِ البارد

أتحسس قبلاتكِ الأكثرَ صعوبةً من الصخر.

محمد الماغوط

التوجه العاطفي .. فاضلة

راودني شعور بالخجل وأنا أضرب على أرقام الهاتف الخلوي العائد لفاضلة، فقد احتملت حالةَ صدودٍ سأواجه بها عندما أعلمها بأمر يخص شخص انقطعت علاقتها به منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، كما أسرَّ لي مالك، وهي الآن متزوجة وعندها ثلاثة أبناء.. أعلمتها وأنا أُسمِعُها اعتذاري بحصولي على رقم هاتفها من مالك، وأنني أود لقاءها للاستفسار عن انسان كانت لها معه صلةٌ مودة.

رحبت بي، وضربت موعداً..

التقيتها في كافتيريا تجاور متنزه العلوتي في صوب القشلة، وكنتُ سبقتها في الحضور.. ابصرتها قادمةً تلفُّ قوامها بعباءة سوداء وقد أحاطت وجهها بوشاحٍ اظهره مستديراً. تخطو لابسة حذاءً جلدياً مُسطحاً وقد اقتربت من الخمسين كما خمَّنت.. عادت لي همسات مالك في أُذني عندما وصفها لي يوم احبها نوفل: " كانت جميلة مثل نخلة تعج بالرطب، شعرُها مسترسل على الكتفين. اذا مشت ضربت الارض واثقة. حذاؤها بالكعب العالي يصدر ايقاعاً يلفت الانتباه.. الآن زمن المتدينين.".

عندما وقفت أمامي عرفتها... لِمتُ في داخلي مالك الذي لم يشر الى أنَّها فاضلة الصحفية التي لا أحد في المدينة يجهلها. فقد كان لها عمود في صحيفة " التآخي" ايام كانت تصدر في سبعينات القرن العشرين؛ وكان لعمودِها تأثير بالغ على المرأة العراقية والقراء من الشباب... يذكر من هم بعمر آبائنا انها كانت تعيش التحرر، مقتدية بالأديبة والصحفية غادة السمَّان. تكتب بلا تابوات، وتتحاور مع قرائها بلغة شعرية تضمخ عمودها الصحفي، فتسحب الى ميدان اسلوبها الكثير من محبي الادب.

رحبت بها وأسمعتها رغبتي.

قلت عندي مشروع كتابة رواية ارتأيت جعل نوفل بطلها لِما في الأمر من حبكة ودراما تجعل من العمل بعد اكتماله ناجحاً بعين القراء... ابتسمت:

" هل بإمكان الشباب أمثالك كتابة رواية ؟ صناعة الرواية أمرٌ صعب."

" لقد سألني مالك السؤال نفسه ، فأجبته ولِمَ لا."

***

ساعة ونصف من الزمن المشبّع بالحديث انصرف. أثملتني فاضلة خلاله بكل صغيرة وكبيرة تخص نوفل؛ فتمخَّض الحديثُ عن فصلٍ كامل كتبته خلال أيام:

" كانا التقيا على قارعةِ الصدفةِ، والصدفةُ كثيراً ما قررت المصائر وحفرت وجودها على صوان التاريخ. فلا قدرة بعد ذلك لا للإنسان ولا للزمان على محوها.. مصائر بمثابة حِكَمٍ وعِبر؛ وحتى حكايات للتسلية، بحيث يغدو تداولُها من باب التندُّر والتفكّه والسخرية... ألم تَقُد الصدفةُ روميو ابن اللورد مونتيـگيو إلى جوليت ابنة عدو أبيه اللورد كابيوليت فيتحابا، ويتعانقا، ويسقط احدهما في بئر لوعة الآخر فيغرقان في ماء نمير حب، فيه من الشوق والجوى والمعاناة ما يؤل الى الموت بطريقة درامية كاسرة وحزن عميق غير مألوف؟!

ألم يجيء حبُّ جميل لبثينة من باب السِّباب وتبادل الشتائم حتَّمته الصُّدفة فخلقت المصيرَ الأليم لحبٍّ تلظّى على نار اللوعة، ونما على لهيب الشِّعرِ الحارق؟!

ثم كم من الأفلام العالمية والعربية العاطفية شوهِدَت كانت فيها الصدفة مفتاح مواربةِ حبٍّ يربط اثنين لم يكونا على موعدٍ، ولم يحسبا أنْ سيذوبا في بوتقةِ الولعِ والشغفِ والاحتراق، ولا كيف ستكون النهاية؟!

حصلت علاقة نوفل بفاضلة يوم كان عائداً من بغداد في القطار النازل الى البصرة حاملاً حقيبة امتلأت كتباً ابتاعها من شارع المتنبي ووضعها مجبراً الى جانبه فتسببت بمضايقة من يتحرك داخل القاطرة؛ وكادت تلك الفتاة السافرة حاملة الحقيبة الثقيلة، التي هي الأخرى ممتلئة بالمجلات والصحف، التعثر والسقوط لحظة تقدمها الى مقعدها فنظرته نظرة انتقاد لوضعه الحقيبة في غير محلها.

تلك النظرة استحالت سهماً اخترق قلبه، هزَّ كيانه، أشعل حرائق في مضارب الروح؛ ما جعله ينهض بعدما اتخذ الركاب أمكنتهم وابصرها تلقي برأسها على متكأ الكرسي كي تأخذ غفوةً(تضئل المسافة الطويلة من بغداد حتى مدينتها والتي بحدود 250 كم وتبدد الارهاق الذي ساورها وهي تنتقل من مقر صحيفة لأخرى لتسلمها ما كتبت وتلتقي مسؤولي الصحف كي تتحادث عن أمر عملها كمراسلة وكاتبة تقارير صحفية) فتحرك ليعتذر منها. ويبدو أنها اغمضت عينيها فقط ولم تكن غفت لهذا ما أن شعرت بحرارة تلامس وجهها حتى فتحت عينيها لتراه قريباً جداً وقد أحنى رأسه وقرَّب وجهه من وجهها ليعلن اعتذاره.

تلك اللحظة أبرق الدماغ الى القلب لزيادة الخفقان، وأوعز للمشاعر أنْ تُثار فينطلق اللسان يعلن تقبله للكلمات الودودة المشبَّعة بعبير التواضع، وتفوه العين برسالة من الرضا الممزوج بالإعجاب به.

ذلك الحيز من الكلام السمح من الجانبين أطلق لروحيهما التحاور عن بعد وهما يضعان رأسيهما على متكأي مقعديهما ويغمضان العيون فيرحلا في حلمٍ مادته حوار... حوار رسم

لهما تواداً متبادلاً، وفتح سيلاً من الرسائل كانت كلماتُها عسلاً ملوكياً والفضاء الذي ينهلان منه رياضاً مُختطف من فراديس السماء العليا... همس لها: " أنتِ جنتي ، تعيشين في قصر يمنحه الله لكِ منحةً مَن يحبهم، وأنا خادمُك الذي استجاب تعالى له دعواه لخدمتك مع أنَّ لا عبودية في الجنة.

ضحكت بملءِ الروح، وسعةِ الصدر المنفتح على عبير حدائق جنة الاحلام، ثم قربت فمها من اذنه وهمست بما يشبه البوح الغاطس في قارورة رحيق : " ياااااه ! وأنتَ ؛ أنتَ فنائي.. نثرتُ فيه ورود الهناء بسعادة تمنيتها من يوم قال القلب اصبحتِ قابلةً لتقبّل العشقِ فاعشقي.. وعشقتُكَ فجعلتُ روحي حديقةَ سعادتِك؛ ادخلها بكلِّ الترحاب".

دُهشَ لحسن اختيار الكلمات، وسعد لأنَّها تبادله المشاعر... مدَّ لها كفَّ المودة فدفعت أصابعها تشتبك مع أصابعه.. قال: " أنتِ أنا ".. ابتسمت وردت: " وأنتَ كما أنا.".

من هنا جاء تقدمه اليها (لحظة توقف القطار في محطة مدينتها السماوة واكتشفته مثلما اكتشف أنَّه من السماوة أيضاً) وهي تحاول انزال حقيبتها من رفِّ القاطرة العلوي، واعلان رغبته في تولّي حمل حقيبتها.

أعلمته حين استأجر لها سيارة أجرة حملتها أنَّ اسمَها فاضلة ابنة باقر شاكر بائع التحفيات.

" وأنتَ ؟ "

بشيءٍ من التلعثم، أجاب:

" أنا نوفل عرفان.. أبي متعهد المملحة."

" أهلا وسهلاً .. أعرفه ." هتفَت فرِحةً.

ولم يمر يومان الا ونودي عليه من مَكتب أبيه.

أُعلِمَ بنداءٍ هاتفي يطلبه :" صوت بنيّة ." قال له العامل الذي صادف ورفع السماعة." طَلبَتكَ باسمِك ."

وكانت فاضلة، تُعلِمُه باحتفاظِهم برقمِ هاتفِ مكتبِ والدِه لانَّ أباها كثير التواصل مع أبيه؛ وكثيراً ما ألتقيا وتحادثا.

لأكثر من اسبوعين صارا يتبادلان الكلام هاتفياً؛ انتهى باتفاق على لقاء.

اللقاء الاول رسا على ايقاع لقاء ثانٍ، ثم آلَ إلى ثالث.

تعددت اللقاءات؛ وتوالت..

معظمها كان يتم مساءً عند الفرات. ولطالما كان الفرات أنيسَ المدينة ورفيقَ دربِها.

يأخذهما السلَّم الحجري نزولاً ثم ينحرفان حالما تطأ اقدامُهما الارضَ الرملية شمالاً فيجلسان عندَ صخرةٍ يحفُّ بها الماء.. هناك يغدو الفرات بهدوئه رفيقاً لهما لا يتحدث ولا

يثير خوفهما. يجلسان فيضعان كفاً بكف. تستشعر هي ارتعاش اصابعه وتسمع همسه مصحوباً بحرارة انفاسه... وجدته رومانسياً حالماً.

إنَّ للرومانس سطوةً عليه تجعله يفقد رباطة جأشه لسماع نأمة بينما كانت هي أكثر جرأة منه.. ترى أنَّهما لم يفعلا ما يغيظ الآخرين ولا ما يمثل اساءة لسمعتهما، يلتقيان؛ يتبادلان أحاديث لا يمسّان من خلالها الغير، ولا هما بمؤذيين ولا مذنبين.

تضم كفه بين كفيها وتروح تمسحها بحنان يشبه حنان أم لوليدها الخائف من الاشباح.

كان مفعماً بالأمل لكن مشدود للخوف من المجهول.

يرى في الليل نعماء وارتقاء الى العلياء. يرى في ميدان الهدوء قصيدة يقولها لتخليد ساعات شدوهما للحرية.. يصرفان ما يتجاوز الساعة في الحديث الهامس ثم يتركان للفرات نجواهما في لقاء دائم وقد شعرا بالوقت مرَّ سريعاً؛ بل خاطفاً."

وتنقلني فاضلة بحديثها الى حيث الأب واهتماماته.

أعلمتني أنَّ أباها كان دائمَ الغياب عن البيت. يقول عنه الناس أنَّه يسافر إلى لندن، هناك حيث تزوجَ امرأة انكليزية من مانشستر وصار يعيش حياتين: حياة عربية شرقية يقول عنها أنَّها حياة البؤس والقهر والارث الميت، والحياة الثانية حياةٌ المناخ اللطيف والحضارة التي تقدّم خدماتها ليعيش المواطن بأقل المعاناة وبأكثر التفاؤل.

لقد دعت فاضلةُ نوفلَ لزيارتها في بيتها مرَّةً... هناك أطلعته على غرفة أبيها الخاصة التي كانت ممنوع عليها وعلى أختها التي تصغرها الدخول اليها... قالت له:

-" ادخُل وشاهد حياةَ أبي الثانية هنا؛ هذي التي لم يكن أحد منّا يعرفها غير أمي.. إنّها جزء من حياته الانكليزية.. حياة الاختلاف والتفاوت. حياة الانسلاخ من واقع لا يراه صحيّاً. واقع مريض في جسد متهالك وعليل يكابر أمام الأنظار فيدَّعي الصحة والمعافاة والكبرياء والألق. واقع لا يعيش إلا على نواحِ ناي، وأنينِ ثكلى، وبكاءِ طفل محروم، وأماني تتعفَّر بوحل الخذلان."

كانت الغرفة كما شاهدها نوفل مُضاءةً بلون أحمر يشع من مصباحين يتدليان من السقف ونشرة جدارية حين تضاء تطلق الواناً مُتنوعة تشتعل وتنطفىء بتفاوتٍ فتخلق جوّاً رومانسياً تُحقِّق للحالم حلمَه الذي يتمنّى مروره ويأمل لو تحول حقيقةً وواقعاً.. يشغل ضلعي الغرفة نصفُ تخم ارائك أبيض ثلجي، بحشوة عالية مُغلفة بقماش من المخمل الباعث على الأبهة يسترخي الجالس بارتياح عليه فيساوره شعور أنه يعيش حياة نبيل من النبلاء. أما الضلع الثاني فرفوف من الصاج اللامع خلفها مرايا رُصِفَت عليها قناني مشروبات روحية أغلبها ويسكي بقناني متفاوتة الحجم والماركات والنقوش وقد كتب عليها "سكوتش" اشارة لتميز هذا النوع من المشروبات بينما تتوزع قناني أخرى من نبيذ أحمر ومشروبات أوربية من الفودگا والجِن والشمبانيا. وهناك منضدة بكرسيين حوت كؤوس من الكريستال وأخرى زجاجية شفافة مقلوبة على سطح المنضدة.. قالت:

-" هذه غرفة خاصة لأبي يدخلها ليلاً حين يكون عندنا ويقضي أياماً في البيت. كانت أمي تخدمه وتهيئ له احتياجاته. واسمعه يقول لها اريدك أن تعيشي كالنساء الانكليزيات فترد عليه بجزع: لا أقدر يا رجل، أنا امرأة شرقية مسلمة. لا تجبرني على ذلك... يبدو أنّه كان يدعوها لمشاركته في تناول المشروبات فتعلن رفضها بينما تعلن طاعتها له ولا تتجاوز في احترامها عليه.. ولم تكن أمي تعلم أنَّه متزوج من امرأة شقراء هناك، وأنّه يعيش معها حياة البذخ التي يحققها المال الوفير الحاصل من بيع التحفيات والانتيكات التي يبعثها الى هناك ويبيعها الى مكاتب متخصصة بهذا الشأن.

" كان أبي توارثَ المهنة من رجل مسيحي عمل عنده في بغداد اسمه بنيامين. كانت لدى بنيامين شركة محدودة تخضع لقوانين الدولة لكن الرجل كثيراً ما تجاوز فهرَّب آثاراً صغيرة لا تثير شبهات السلطات الحكومية أمّا الكبيرة فكان يهرّبها بالخفاء. اعتاد هذا الرجل التعامل مع مؤسسات انكليزية تهتم بهذا الشأن. ولفطنة أبي وذكائه يوم كان شابّاً ولم يكن قد تزوج بعد تعرف على عناوين تلك المؤسسات وصادف أنْ سافر إلى لندن مع بنيامين سفرة واحدة عاد على اثرها وبه رغبة ان يتثمل بالإنكليز فصار لا يرتدي بدلة أو أحذية أو ملابس داخلية أو عطور أو حاجات منزلية بدءً من المشط الذي يمشّط به شعره وانتهاءً بالمكواة والراديو والمُسَجِل الا بماركة انـگليزية . كان يقول: " لم يكن الانـگليز عظماء لو لم يكونوا بالبهاء والفخامة والرزانة التي تؤهلهم لذلك." ، فكان يتمثل بـچرچِلٍ في السياسة، وبرتراند راسل في الفلسفة(مع أنَّه لا يعرف من الفلسفة غير نتف معلومات وعبارات)، وجون لوك في الاقتصاد، وشكسبير والأخوات برونتيه في الأدب. لذلك كانت صور هؤلاء مزججة ومعلقة في غرفته وتحت كل صورة قول مأخوذ من اعمال هؤلاء. فمثلاً تحت صورة چرچِل كَتب " السياسةُ امرأةٌ عاهر" ؛ وتحت صورة راسل وردت عبارة " لا تخفي اراءكَ الشاذّة، فكلٌّ رأيٍ مقبول الآن كان شاذّاً من قبل."، أمّا شكسبير فجملته المشهورة على لسان هاملت " أكونُ أو لا أكون " كتحدٍّ يعلنه الانسان عندما يجد نفسه في مواقف مصيرية وعلى المحك؛ وعن الاخوات برونتيه وجدت جملةً لشارلوت، الاخت الكبرى لـ" أميلي" و "آن" ـ اذ تقول " أُحاول تجنُّبَ النظرِ إلى الأمام أو الى الخلف؛ لكنَّني احاولُ الحفاظَ على نظري مُتقدِّماً". أمّا في السينما فكان يحترم فانيسا رَدگرَيف من الانـگليزيات لبراعتها في التمثيل ومواقفها الانسانية العالمية لصالح الانسان المُضطَهَد، فيتابع افلامها ويلاحق اللقاءات التي تحصل معها والاماكن التي تتردد عليها فيحضر إن صادف وجوده في بريطانيا"."

على أحد الرفوف صُفَّت مجموعةٌ من الغليونات. كان أبوها مولعاً باقتناء الغليونات المتنوعة من خشب الابنوس والجاوة والصاج والبخور، محتفظاً إلى جانبها بأكياس عديدة من أنواع التبغ بروائح متفاوتة، أطيبها برائحة الفانيلا التي حين يملأ بها جوف الغليون ويشعل التبغ بولاعة الرونسن يشيع في فضاء الغرفة ويتسرب إلى فناء البيت فيشعر من يستنشقها بالهناء ويخيل له، كما اخبرته، أنه يحلق في حديقة تحتفي بالزهور وتحث الطيور على اطلاق زغاريدها.

-" كنّا ندفع رئاتنا الى استنشاق ما تَتَّسع، ونتمنى البقاء لفترة أطول من زمنها المعتاد."

قدمت فاضلة صديقها نوفل في أول دعوة زيارةٍ لبيتها الى أمِّها دون أن تُعلِمه مُسبقاً برغبة الام بلقائه؛ إذ وجد نفسه إزاء امرأة بقوام يعكس الترف، وبحديث يختلف بطبيعته ومستواه الثقافي عن احاديث الامهات البسيطات... وجد نفسه يستمع لامرأة تحدّثه عن طبيعةِ المجتمعِ القاسي المركون في خانةِ اهمالِ التاريخ له وعدم ايلائه قدراً من الاهتمام. فما فيه لا يبعث على التأمل، ولا يُرجى منه ما يمكن ان يرتقي إلى درجات الحضارة، ولو الدنيا منها، تلك التي تعيشها الشعوب الأخرى .. تقول كأنَّها تعلن بفلسفةٍ مبنيةٍ على حقيقةٍ موضوعيةٍ لا تحيد عنها " إنَّنا أمّةٌ ميتة !" .. فيدهش لهكذا تصريح، ظنّهُ تلقيناً من زوجها أو حفظاً من مقولات سمعتها دونما فهمٍ لعمقها. لكن استمرار الحديث ومعرفة أنها صاحبت زوجها ثلاث مرات الى انـگلترا فشاهدت ما شاهدت من شعب يفهم وجوده على الارض، ويقدِّر عُظم مسؤوليته التاريخية بين الشعوب، وادراكها بحكم تعلمها الثانوي أنَّ الامم لا تَبني مجدَها بغير فهم الحاضر والتطُّلع الى المستقبل مع جعل الماضي عودة للمراجعة لا غير، بعيداً عن التبجيل ورفضاً للتقديس ما جعل نوفل يُقر مع نفسه أنه لا يستمع لامرأة تضمُّها جدرانٌ قاسية كما هي أمَّهُ وامهاتِ مدينتِنا، إنَّما امرأة شاهدت فقارنت، عاشت فصرحت. امرأة المجتمع التي يُراد لها قيادته والتأثير فيه، لا الهامش المركون في زاوية من زوايا الحياة الاجتماعية الرتيبة.

يومها خرج نوفل وقد نحت وجود فاضلة على جدران ذاكرته.. عدَّها فتاة الأمل في ميدان طموحه وتصوراته، وجعلها نموذجاً ينبغي أن يُحتذى... صارت أحد احلامه التي يريد لها أن تتراصف فتكون أمّةً عظيمة، وبلداً يضاهي بلدان مَن اعتلوا سفينة العلم والمعرفة وانطلقوا يبحرون في محيط البناء الاعظم، وصولاً إلى المجد الانساني الذي ينتفي فيه العسف ويحيا الانسان للبحث والاكتشاف سعياً للهناء السرمدي.. زاد من تعلقه بفاضلة إزاء هكذا أم، ووثوقه بذاته أمام جملة الاحلام التي يبغي رؤيتها تتحقق... أيقن أنَّ فاضلة لابد أنْ تكون حاصل جمع الثقافة النسوية(متمثلةً بأمّها العالية المَقام فهماً للحياة) مع التنوير الرجولي (بأهمية الأنسنة والعيش بانفتاح) المتمثل بوالدها القافز باقتدار وثقة على جملةٍ من الموانع والحواجز والتابوات .. ومن هنا انتفت الغرابة في رؤيته لها تتحدث بثقافة عالية ولغة فيها من الرفعة ما يعدها الفتاة النموذج في الحديث والمُفكِّرة المتمتعة بذكاء وفطنة وتأثير مهيمن على المستمع، لها مكانتها المرموقة وباعها العالي لو كانت في مجتمع غير مجتمعنا، أوروبي مثلاً أو في بلدان تتساوى المرأة في تفكيرها وخططها وتعاملها مع الرجل في مختلف الانشطة والحركات.

عندما سألتها عمّا تعرفه عن حب نوفل للشعر، وتأثير البريكان عليه قالت:

((من خلال مصاحبتي لنوفل اكتشفتُ حبَّهُ للشعر وتأثرَه بالبريكان... ذلك الحب والتأثر قاداه إلى الكتب الفلسفية.. لقد أحبَّ الفلسفة واعتبرها غذاءَ العقل .. أفصح لي مرةً أنَّ الفلسفة أزاحت الكثير من البلادة التي كان لها وجود في قلبه؛ أبعدت الرتابة التي كان وقته يعتاش منها ويعيش على مائدة هدر الوقت... كان يقول عن الوقت " إنَّه مادةُ الفلسفة وفضاؤها الوسيع". فالوقت برأيه أحد أوجه الفلسفة في تعاملها مع الوجود... صار يبحث عن كل كتاب ترد فيه كلمة فلسفة، ويسعى إلى كل ما له صلة بالعقل...

الأخلاق مفردة يراها رحماً يولّد مجتمعاً صالحاً، وبغيرها تعيش الشعوب على هامش الحياة، وتتواصل في تيه من الصعب الخروج منه.

"تعلقه بالفلسفة أدى إلى ما اكتشفته تباعُداً من قبله. فصار لقائي به من عِداد الرجاء أعلنه عبر الهاتف فيعلن اعتذاراً اتلمس فيه الكثير من المجاملة. لكنَّ قلبي لم يسمح بتقبل المجاملة فأفصحتُ له بعدم رضاي عن ابتعاده، فليس عدلاً أن نجعل هوة علاقتنا تكبر يوماً بعد يوم."

تهز رأسها، وتتفوه جَزِعَة:

"وفي ساعة أسى مقرون بوجع التقيته قلت له: "نوفل. لا تظن بي الظنون.. لنجعل علاقتنا مفروشة بورود الود.. لا اريد لك الانغلاق، لا أريد للفلسفة أن تبعدك.. لا تصعد السفوح الحادة، والقمم البعيدة الشاهقة.. تلك مغرية ومموهة بالخداع.. ستهوي وتتحطم. "

" لا تتعالي علَيَّ بكلامِكِ هذا.. سأراكِ رعناء."، ردَّ غاضباً. مع أنني وجدت في قراءاته ومطالعاته زيادة في ثقافته، والمثقف واعٍ. وعيه يجعله اكثر ادراكاً للسلوك، وأقل انفعالاً في المواقف التي تصنع الغضب.

في الحقيقة، لم أكن أتعالى عليه.. لم أكن رعناء معه؛ إنما هو مَن أودع في قلبي طعنةَ الجزع؛ هو من أيقظني من الحلم الجميل الذي كنت فيه أحتضنه بذراعي وأهمس في أذنه: لن تبعدك عني الفلسفة يا نوفل ولن اجعل أحبابك من الفلاسفة يأسرونك بطروحاتهم.. لكن!.. هو مَن صار يبتعد وأنا أندَه به: لا يا نوفل، نحن مخلوقان متطابقان؛ تطلعاتي لا تختلف عن تطلعاتك؛ لا تقتل الصدفة التي جمعتني بك فتجعلها تبعدك عني.

كان بحكم مضمون قراءات مكثفة، وفحوى كتب يقتنيها؛ مضافاً لها غثيانه من واقع أبيه وتهالك مجتمع يضمه، ومآسي قرأها في حياة عمّه وخالِه، وارتباك حياة يومية تفصيلية يعيشها في البيت والعمل، ونقده المتكرر لمن تسبب بحصول التجمعات البشرية العشوائية وزحام الاسواق، وتجنّي الباعة على الأرصفة والشوارع... كل ذلك ساهم في جعله فرداً يبغي التنكّر للمحيط.

صرتُ أشعر أنه بدأ يراني معيقةً لما يأمل؛ لا لقصور في تصرفي لكن لعجزه في اتخاذ رؤيتي. هو يدري انني لا أستطيع الوقوف الى جانبه، لا قدرة لي على مجافاة الواقع وخلق واقع جديد مستعدة في مجرياته لتقديم التضحيات الجسام... مرة حدثني عن شخصية المرأة الاوربية القوية، وكيف أنَّها ناضلت بثبات حتى استطاعت لوي عنق قوانين ابتكرها الرجل وصنع منها عتلات جبروتية معيقة لنهضتها؛ وكيف قدمت التضحيات، فناضلت نضالاً خرافياً تمكنت بعده من تغيير مسار المجتمع الأوربي. فأجبرت الساسة على سنّ قوانين أنصفتها واعترفت بقيمتها واهميتها الاجتماعية.

لطالما ردَّد بجزع ومرارة: " إنَّ واقعنا ظالم وقاسي ومتجبر كظلم أبي وتسلطه وتجبره. يرى في أخذِ المرأةِ حقوقِها انتهاءٌ لسطوة الأب، وقسوة الزوج، وبغض الأخ، وتأثير المجتمع برمته.”))

بنهاية حديثها أطلقت فاضلة سيلاً من الحسرات وهي تردد أمامي:

"أكبرتُ في نوفل ثقافتَه، وسلوكاً لطيفاً هو من تصرفاته اليومية مثلما استمتعت بروح دعابة كان يتجاوز بها ساعات توتر يصنعها الواقع، ابتداءً من نظرته المتأسية على أبيه كرجل لا يدرك أنَّ للعائلةِ حقوق، وللعيش متطلبات ينبغي أن تتوازى والمردود الاقتصادي. فليس عدلاً أن تتصرف كغني وأنتَ فقير، ولا من الصالح أنْ تسلُكَ سلوكَ البخلاء وانت تعيش نعمة لم تتوفر لغيرك، وانتهاءً بالجرح الذي ما فتئ ينز رثاءً على حال لم ولن يجد له تغيراً.

تتوقف قليلاً ثم تفوه: للحق أقول أن والد نوفل يتصرف تصرفاً أهوج؛ فليس عدلا تبديد المال الذي بعهدته تبديداً بلا مسؤولية، وبلا شعور بضرورة تحكيم العقل في التعامل مع ما يأتيه من مال ضخم تنتجه المملحة. فلأسرته الحق بهذا المال. هو الذي اهمل كل شيء إلا نزواته...

كنّا إذ نلتقي يكثر من الشرود واطلاق الحسرات. يرى أنَّ عالمه لا ينبغي أنْ يكون هكذا.. أُحاول تبديدَ رؤاه السوداوية وتقبل أمر والده كواقع لا مَفر منه مثلما أُحدثه عن آباء لا يهمهم سوى نزواتهم، ويعتقدون أنَّهم لا يفعلون ما يؤذي اسرهم... يغضب لما اقول فيضرب المنضدة بقبضة كفه وينهي اللقاء.. صار في ما بعد كثير الغضب والانفعال وبموازاة ذلك صار انطوائياً يفضل العزلة ويزيد من مطالعة الكتب.. وكما يبدو اتخذ في ساعة هوج قرار قتل أبيه أو قتل نفسه في أقل الأحوال."

قالت ذلك وحبست دمعتين ثقيلتين ترقرقتا على تخوم جفنيها الهابطين؛ كأنها تستعيد تلك اللقاءات والمواقف التي كان فيها سجينَ حقدٍ على ابيه.

" أحقّاً قتل أباه ؟!" قلتُ بشيء من الترجّي في الحصول على القول اليقين.

" لا أدري، ربّما قتله أو قتل نفسه."

" كيف؟! "

هزَّت رأسَها بما يشبه الحيرة أو التململ:

" لا أعرف.. لا أُصدق ما أشيع.. من المستحيل أن يرتكب انسان كنوفل فعلاً شنيعاً كهذا... ومع ذلك، يمكنك التوصل للحقيقةِ من أخته سهيلة.. فهي كما تناولته الألسن كانت في الحوش تطالع نوفل من خلال الشبّاك المشرف على غرفة أبيه حيث حدث الشجار والوفاة... الشائعات التي انتشرت اشارت إلى مشاهدة سهيلة لنوفل يهجم عليه بعمود حديدي يقال أنه أعدّه كأداة للقتل، وكان يصرخ: ما لنا مستقبل الا بمسحِك من حياتنا!.. لا أمل في مستقبل بغير دفنك في الأرض وجعلك ذكرى لا حكمَ لك علينا، ولا لك ظل يلاحقنا أين ما مشينا". هذا سمعته من الناس، وسمعه غيري.

" وأين أجد سهيلة؟ "

" يسكن معها في بيتها لأنه بقي عازباً ولم يتزوج.. سأعطيكَ عنوانها.. حاول أنْ لا تقابلها وهو في البيت."

" وما قصة الناي ، والمكان البعيد عند طرف الفرات ، ولماذا العزف في منتصفات الليالي؟

ابتسمت ابتسامة فيها، كما خمنتُ، شيءٌ من الإعجاب بفراستي:

" للناي حكاية تحتاج للقاء تجريه مع مالك، فهو الأكثر تفاصيل مِمّا املكه أنا؟"

(2)

النّاي ... رديف الكتاب

اهتمامي بموضوع الناي، ورغبتي الملحة في معرفة شغف نوفل بالعزف عليه بشجن أخاذ دفعني للقاء مالك، وطلبي اغداق ما تجود به ذاكرته عن قصة الناي وموهبة نوفل بالعزف به.

كان اللقاء حميماً.. ووجدت مالك يزيد اهتماماً بما اريد. لعله وثِّق في أنني فعلاً سأكتب رواية عن نوفل، وأن اسمه كصديق سيتواجد على الأسطر وفي الصفحات لذلك مهد الطريق بالحديث والاجابة عن كل ما دار في ذهني وراودني.

حدثت مالك أولاً عن رؤيتي لآلة الناي ومن يعزف به، مشيراً إلى أنَّ العازف حين يعزف يتوجع كجريحٍ يبصر دماءه تنزف ويشعر بقلبه يخذله، وأنَّ الوجع يكمُن في صميم معاناته المتوالية.

وافقني الرجل مع ما قلت بعد ما اسمعته كل ما دار من لقائي مع فاضلة، وراح يردد:

أعرف ذلك، يا ساجد. أعرف.

واصلت كلامي بما رغبت في اسماع مالك ما أعرف، فذكرتُ له ما قرأته مرةً في مجلة " المجلة " الالمانية الشرقية التي كانت تصدر باللغة العربية ابان وجود ألمانيا في كنف الاتحاد السوفيتي كان أبو صديقي يحتفظ بها في مكتبته عن عازف ناي يسكن في احدى قرى قرغيزستان النائية بين الجبال يسفح الدمع على خديه وهو يعزف كلما اراد اللقاء مع زوجته التي رحلت يوم كانا شابين تجنى ذلك الفاتك الذي اسمه السرطان من التعشش في ثديها الايمن ثم انتقل الى الأيسر، ثم بزمن دفين تغلغل الى الكبد فأحدث آلاما لا

تطاق لها؛ كان يسمعها تصرخ وهو العاجز المحتار كيف يتصرف؛ فليس من السهولة واليسر نقلها عبر المنحدرات والتعثرات والخوانق وقطع مئات الكيلومترات الخرافية القطع بغية الوصول الى مدينة تحوي مستشفى، فماتت بين يديه وآخر نظراتها ترسو على نايه المعلّق جوار النافذة التي تشرف على وادٍ سحيق يتسم بالعتمة ويتحلى بالصمت... فصار بعد موتها ينزل الى ذلك الوادي ليعزف صوت قلبه ورسالة منه اليها وهي في البعيد، البعيد تؤكد استمرار عشقه الأبدي لها فينتقل صوت الناي الى عالم الوادي بأجمعه محدثاً صدى ورنيناً يغمر الفضاء، ويستمر مُدوُّمَاً حتى بعد الكفّ عن العزف ويتحرك عائداً الى بيته الذي على الجبل، فيقف عند النافذة المطلة على الوادي ليستمع لصوت قلبه يحاور بلغة الناي زوجته البريئة التي فتك بها الجاني وهي في أوج سعادتها معه."

شاهدت عيني مالك تترقرقان.. فصمت؛ مع أني اردت مواصلة كلامي فأُسمِعُه ما حدّثنا به مدرسُ الرسم في المتوسطة من أنّه قرأ عن قومٍ في أحراش گواتيمالا لديهم يوم يحتفلون فيه بالعزف على الناي، ويتخلل الحفل مسابقة للشباب الراغبين بالزواج فيتوّج اعذب عازف يتقن التعامل مع هذه الآلة الهوائية بإعطائه الحق في اختيار أية فتاة من القرية يريد الزواج بها.

صمتُّ؛ بينما وجدت مالك متلهفاً لقص ما يعرفه عن نوفل والناي.. قال:

((اصطحَبتهُ أُمُّه مرةً وهو فتي إلى عرس ريفي في قريةٍ كان الوصول اليها يستدعي ركوب زورق. وكانت في الزورق مجموعة من النسوة والصبية والصبيات، ومعهم العروس التي نُقلت من شاطئ الفرات في المدينة الى القرية.. وهناك حين الوصول انهمك الجميع في مراسيم العرس بينما سحب نوفل صوت غريب استعذبه كثيراً، فوجد صبيّاً ريفياً يقاربه العمر يعتمر كوفيةً يعزف على قصبتين قصيرتين مثقوبتين وملتصقتين سوياً بمادة من القار. كان الصبي يتلاعب بأصابعه على الثقوب فيصنع موسيقى راقصة أطربت نوفل كثيراً. قيل له إنّه المُطبَك، هذا الذي يستخدمه الصبي فيعزف عليه جميل العزف.

منذ ذلك اليوم تعلق نوفل بهذه الآلة التي حسبها تصنع الجمال؛ وحسب أنْ سيحصل عليها يوماً فيتعلم العزف ويجيده مثلما يجيده ذلك الصبي.

لكن ذلك لم يحصل.

الذي حصل أنّ الاعوام مرت وتوالت. والمدينة كبرت واتسعت.. وصار المكان الذي استدعى يوماً ركوب الزورق في ذلك العرس القروي قريباً، وعلى مقربة من دائرة البريد الذي يعمل فيه الآن. وفي احدى الصباحات، وقبل ساعة من بدء الدوام أخذَت نوفل فكرةُ السير بمحاذاة الفرات. كان مأخوذاً برغبة التغيير، برغبة التأمل، برغبة مطالعة وجوه الناس في أول مقدم النهار. فقطع شوارع المدينة سيراً سالكاً جادّة الكورنيش على أمل صرف الوقت ريثما تدنو عقارب الساعة من الثامنة، عندها يكون قريباً من دائرته فيدخل، ويحفر توقيعه على صفحة السجل المُعد لتوقيع عمل ذلك اليوم... لكنه في ذلك الصباح

واصل سيره متَّخذاً نفسَ الدرب المحاذي للنهر، فشاهد عن بُعد شجرة السدر التي ابصر عندها الصبي يوماً قد كبرت وتضخمت، وبانت لها عريشة هائلة.. لم يسمع ذلك الصوت المبهج الذي سمعه من مُطبَك الصبي إنَّما تناهى اليه عزف ناي يأتي مشوباً بمسحةِ حزنٍ يبعث على الأسى؛ أسىً يترك خدوشاً عميقة في صميم القلب بحيث يغدو من نافلة الاستحالة محوه أو طمره بغبار النسيان.

يعود اليه وهو يعيش هوس المراهقة تلك الوصلة التي شاهدها مرةً في التلفزيون لناظم الغزالي؛ ويظهر في الفرقة الموسيقية التي خلفه خضر الياس؛ ذلك الضرير الذي يشكل وجوداً مهما في الفرقة بعزفه على الناي.. يشاهد ناظم الغزالي يطوح برأسه على ايقاع تدفّق قلب الناي بالشجن، فيطلق لروحه البوح على أشده، ولصوته كل مساحات الحنين:

" سمراءُ من قومِ عيسى مَن اباحَ لها / قتلَ أمريءٍ مسلمٍ قاسى بها ولهى"

باتخاذه الدرب الترابي بين كثافة النخيل، ودنوه من الشجرة ووصوله إلى جذعها شاهد نوفل شاباً تصوره عليلاً . تركت شمس الاعوام المتوالية لفحها على وجهه فجعلته في سمرة داكنة ؛ واحدثت الأيام بمرورها المتوالي قسوتها على قوامه فأظهرته نحيفاً يبعث على الشفقة.. ولولا التحديق المركز فيه والتفرس في ملامحه لما اقتربت صفاته من ذلك الصبي الودود والمَرِح الذي وقف نوفل الفتي إزاءه يوم غمرته الدهشة وعرض عليه شراء المطبگ.

كاد يهتف به : آآآآآآآه ؛ ما الذي جعلك هكذا ؟! ولماذا استبدلت المطبگ صانع المرح بالناي صانع الحزن ؟!

يومها فكَّر نوفل أنْ سيشتري ناياً، وسيتعلم العزف به؛ ذلك أنَّ العازف بها هو من يعبر عن المكنونات بالصدق واليقين. فاستدار عائداً... وجد أنَّ الطريق الذي سيقطعه سيكون على تمام الوقت المحدد للدخول الى الدائرة والتوقيع في سجل الدوام اليومي... هناك في القاعة التي ستضمه هو والموظفين والموظفات، كلٌّ وراء منضدته.

ستكون هناك شريفة، بائعة الطوابع ومُعدة وصولات الرسائل المسجَّلة، وهي تضع على جانب من منضدتها مجلداً قديماً يجمع اعداداً من "مجلتي والمزمار" المخصصة للأطفال. فهي ما زالت آنسة تتشبث بالطفولة رغم اشرافها على أعتاب الثلاثين، رافضة عديد الذين تقدموا للاقتران بها مأخوذين بجمالها ولطافتها، مستمتعةً بفتح المُجلد والسَّفر مع الرسوم التخطيطية، والألوان الزاهية، والشخوص الذين يعيشون عالم البراءة في طبيعة، صنعها الثنائي "الكاتب والرسام"، تنتفي منها الاحقاد والبغض والشر والحسد والغل والضغينة والغدر.. طبيعة لطالما اعتلت شريفة ظهر أوَّزه تصاحب قرينات لها في سماء صافية متّجهات صوب بحيرات عذبة المياه محاطة بيانعات الشجر أو حاولت اللحاق بغزالة أومأت لها غدرانٌ وفيوضٌ خضراء تحتفي بالبهاء والألق. ولا تعود إلا على همسة من موظفة قريبة منها، رفعت عن أذنها الهاتف الخلوي إذ كانت تكلّم رفيقةً لها في دائرة أخرى، لتعلمها بضرورة تلبية طلب مُراجع جاء ليبعث طرداً.. عندها تغلق المُجلد بعدما

تضع قصاصة ورق تحدد الصفحة التي وصلت اليها في المطالعة، وتنهض لتلبي حاجة المُراجِع... وهناك الموظف الأربعيني الذي لا يكل عن حمل ديوان عنترة بن شداد ويحفظ من شعره الكثير، فهو يرى في نفسه عنترة بحبّه لليلى، ذلك أنَّ حبَّه لبنت خالته شفيقة نما منذ كان فتى يسمع من أمّه أن شفيقة ستكون زوجة له، وكانت أختها تعدها بتحقيق مآلها؛ لكن الزمن قد تتغير بوصلته، والاقدار قد لا تجيء متوافقة مع الامنيات والرغبات إذ ما إن كبر ابن عم شفيقة حتى ألح على أبيه وأمه أن تكون شفيقة زوجة له. ولأن ابن العم كان موظفاً مرموقاً فقد تنكرت ام شفيقة لعهدها لشقيقتها وقررت تزويجها لابن عمها. فراح ابن الخالة يتقمَّص شخص عنترة هاتفاً بالشجاعة التي سيجعلها مرسوماً يمثله فلا يتزوج إن لم تكن شفيقة زوجة له. وظل يرى في قراءته لأشعار عنترة وحمله للديوان الشعري برمته إلا دواء لجراحه العميقة، بقصائده يعلل بها النفس؛ وبالأبيات يطبِّب بعضاً من الجراح. وكان يرى في نوفل عرفان قريناً له في آلامه ومعاناته.

ولم تمض غير أيام حتى أعلمني بأنه حصل على ناي اشتراه له صديقٌ من محل بيع آلات موسيقية اثناء زيارته للعاصمة.

من يومها صار نوفل يعبر الجسر عصراً، ليذهب إلى الشريط الرملي. ومن بين الاجمات يأتي صوت تعلمه العزف، فيبقى هناك حتى الغروب.

تكرر ذلك لأيام وأيام؛ ووجدته يقلل من جلوسه في المقهى ليذهب ليعزف.. ثم صار يفضل العبور الى مكانه المعتاد ولكن ليلاً. فيروح في ذلك الشريط الرملي المحاذي للنهر يطلق روحه شجواً بينما صار المارة على الجسر يستمتعون بما يسمعون؛ وأكثر مَن يستمع اليه كان الشباب الذين صاروا يتجهون الى حيث يكون، فيلتفون حوله وهو يعزف. ويوماً فأياماً شرعت اعدادهم تزداد، وشرعوا يسألونه لا عن العزف فحسب بل عن أمور تشغلهم فيجيبهم اجابات تلمسوا فيها ثقافة عالية، وتوصلوا الى أنَّهم لا يلتقون عازفاً فقط، بل ومثقفاً صار يحدثهم عن الثقافة باعتبارها قاطعة مسارات البشرية نحو النور، وهادمة صروح الجهل، والتخلف، والانكفاء.

(3)

عن الحُبِّ والحَرب

في أحدِ لقاءاتي بمالك فتحَ لي صفحةً عن حياةِ نوفل تتعلّق بالحُبِّ والحَرب، فراح يقول بلسانِ مثقَّفٍ أقرب الى فيلسوف:

((للحربِ يا صديقي، غزواتٌ وللحياةِ انعطافات.. مَن منّا لا يُقِر أنْ لا حربَ دائمة، ترقص على ايقاع أنينِ الجرحى بوتيرةٍ واحدة؟!.. ومَن منكم لا يقول أنَّ الحياةَ متغيرةٌ، ولنا مَعها مَحطاتٌ ومسافات؟ .. تتبرأُ القلوبُ من نبضاتِها إنْ هي آثرت الركونَ إلى الرتابةِ؛ والأصابعُ

يعتريها الشللُ حين تنقر على طبلٍ مثقوب.)). ونوفل ما بين الحربِ، التي أكلت منه الأماني(كما أكلت منّا جميعاً)، والحياةِ، التي ساقته إلى تيهِ المسافات صرفَ العمرَ وبات لا يعيش إلا على اجترارِ ذكرياتٍ مرّت مثلَ غيومٍ في يومِ صحوٍ تهزأُ فيه الشمسُ من تياراتِ بردٍ تناهضُها بالبخارِ وتتوعدُّها بكتلٍ سوداء.. الكتلُ السوداء تتشكّلُ للحظاتٍ ما يلبث هزءُ الشمسِ أنْ يحيلها بيضاءَ تتفتّت ثم تتبدّد، وتتلاشى.

أذكرُ أنَّ نوفل عرفان فاه لي بعد أولِ لقاءٍ مع فاضلة بإعجابه بها كونها الفتاة المتميزة ، حين يقارنُها مع مَن التقاهن أو عرفهن... وما زاد من تعلّقه بها ارتيادها مكتباتِ المدينة، على قلّتِها ، تبحث عن كلّ ما هو حداثي في مَسار الصحافة والأدب، ولها ولعٌ شديد بالفن التشكيلي مع أنّه لم يشاهد لها عملاً فنياً. فاهتمامُها يقتصر على اقتناء الكتب والمصورات التي تتناول المدارسَ الفنية... تتوقف كثيراً عند الانطباعية ونظريتها. فتحسب روّادَها من الشُّجعان المتمردين ، الذين وقفوا بوجه التابو الصارم فتوّجوا تمردَهم بإقامةِ معرضٍ أسموه المرفوضات.

كتبت له حين تلمّست انكماشه وساورها شعورُ نيّته الابتعاد عنها جراء تشاؤميته ومحاولة ثنيه عن الخروج عن طبائع الحياة اليومية :" لا تترك صورتي يعلوها غبارُ الاهمال يا نوفل، وليس لك أنْ تنساني. إنَّ النسيانَ موتُ الحقيقة التي كلانا يبحث عنها."

بعد تلك الكلمات وقفُ نوفل عاجزاً عن الجواب. لا يستطيع الرد بما يُضاهي ما سمع، وما يريد التعبير عنه... كثيراً ما يعجز الانسانُ ويجد نفسَه مكتوفَ التعبيرِ، خالي الوفاضِ من كلماتٍ يتمنّاها مؤثِّرةً وقولاً فاعلاً يفي بالغرض؛ خصوصاً والأمر يتعلق بفاضلة.

كانت فاضلة ترأف لحالِه فتكتب قصاصاتٍ ترفقُها له في كتابٍ تستعيره منه بغية قراءته: " أعشقُكَ يا صغيري.. أموتُ في تلعثمِكَ، أغرقُ في ضبابِ خجلك.. أهيمُ في حالات نفورِك الذي أراه مُحمّلاً بالبراءة."

يتنهّد أمامي وهو يُحدثني عن فاضلة؛ يعرض حجمَ تشوّشه مَقروناً بتساؤلات الحيرة :" هل أنا عاجزٌ عن الرد والبوح، يا مالك، أم هي أكثرُ منّي ثقافةً، اوسعُ منّي عاطفةً، أجيشُ منّي تعبيراً وكسباً للحرب؟!.. آآآآه! الحرب.".. ويطلق تنهيدة أطول من الأولى.. يُطلقها وهو يقول " حطبُ حربي أيامي.. نارُها واوارُها تطلعاتي وما خططتُ له.. دخلتُها، وأنتَ دخلتها يا مالك، ودخلتها اعدادٌ لا تحصى من الشبّان في عمر الفتوة مُساقين بشعار الكبرياء والفخار وحتمية النصر الذي كانت ترفعه الانظمةُ البالية؛ وخرجنا منها برايةٍ مُمزّقة أذلاّء، مُهانين، مَعطوبين.. نهاية كنّا نعرفُها وندركُ النتائج. فالحربُ بلا إيمانٍ كالإبحارِ بلا سفينة... كانَ خالي جواد يُردد قول عنترة (سيذكرني قومي اذا الخيلُ أقبلت/ وفي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ) في ردٍّ على قضاءِ شبابه مَسفوحاً في حربِ السبعة والستين، يوم وقفَ العربُ كأنظمةٍ مهزومةٍ ليستولدوا مصطلحاً أقلَّ وطأة على قلوبهم من كلمةِ هزيمة فقالوا عنها نكسة، ووقفَ هو صامداً وراء مدفعِه حتى بعد أنْ انتهى عتادُه وأصبحَ المدفَعُ قطعةَ حديدٍ ميتة وقالوا له اترك السلاح وانسحب؛ أي اهرب، فأبى إلا أنْ يبقى وفياً لسلاحِه ويستمر مُقاوماً حتى لو تطلّبت الحربُ مع العدو بالسكاكين، وحتى بالبساطيل. لكنَّ الأيامَ والأعوامَ مرّت ولم يذكرُه قومُه. أقبلت خيلٌ، وبرحت خيل. والحربُ

اذلت، وأهانت، واستهزأت، وسرقت الأرض والعِرض؛ وبقي هو في انتظار. كلّما طُرق البابُ ليلاً هرع هاتفاً: ها هُم جاءوا يستنجدونَ بي.. وكان البابُ يُطرق؛ يُطرق كثيراً، ومع كلِّ ذلك الفعل يهرع .. يسحب المزلاج ويشرعه على مصراعيه موقناً أنَّهم أتوا. ولم تنفع معه رجاءاتُ الأهلِ بالتهدئةِ ونسيانِ النداء الذي ظلَّ يتردَّد ويتناسل في رأسِه فقط، حتى سلَبت الأيامُ عقله، وتركته يهذي مُلوِّحاً بسيفِ اعلان الانتظار والحضور وتحقيق الانتصار، واعادة الهيبة والكبرياء له ولعنترة؛ تماماً كما كان دون كيشوت يطوِّح بسيف أوهامه، حتى بلغ مبلغاً قرَّبه من الجنون... جُنَّ خالي وهو يرى الخسارات فيصرخ بهيستيريا مذهلة (يا إلهي! ما الذي فعلناه ؟!).. كلام هتفَ به بوب أثرلي مَرعوباً وهو يقذف من طائرته بالقنبلة النووية التي أطلق عليها صانعوها الامريكان اسم " الصبي الصغير" على مدينة هيروشيما في ذروة صباح الازدحام والحركة ويرى ويلَ فعلِها، وعُظمَ تدميرِها.. هل سمع خالي هذا الهتاف أو قرأه في احدى الصحف أو تلقَّفه يوماً من مذياعٍ بحيث ردَّده، واستمر يردِّدُه حتى جُنَّ؟

لا أدري.. " يا إلهي ما الذي فعلناه!"

ويقصد ما الذي فعلناه ونحن نرى ضياعَ فلسطين وما بعدها الاجهاز على أراضٍ عربية أخرى من مصر وسوريا والضفة الغربية آخر بقايا فلسطين التي بعهدة الاردن، من عدوٍّ رماه علينا الغرب؛ فلا نحن تعايشنا معه ولو على مرارةٍ ولا اعددنا العدَّة واخرجناه مهزوماً تلاحقه كوابيس شجاعتنا وتضحياتنا.. ذلك الغرب البغيض استصغر وجودنّا فجعلنا نحرث في الهواء بانتظار قوةٍ خارقة تعيد لنا كبرياءنا المُنتهَك وعِرضِنا المسلوب.. إنَّ القلبَ لَيدمى لتذكّر كلِّ هذا الهول، وإنَّ الرأسَ ليغزوه الدوار فيصبح اسيراً للصرع وفقدان الاتزان.

لم اتَّبع، يُردِّد نوفل دَوماً، هتاف خالي المتكرر في ميدانِ تحطيمِ معنوياته يوم كانَ مستعدّاً للتضحية موقِناً بالنصر حين يعُطى الحرية ويُمنَح الدعم ويُرافَق بالصدق من مرافقيه في المعركة؛ لا، ولا أَستحيلُ دون كيشوت العرب فأصرفُ الزمنَ أحاربُ طواحينَ الهواء.

من موضعه المشبّع بالكآبة وشعوره برماديةِ القادم كتب لفاضلة متكدراً: " إنَّنا نعيش أيام التفكك. فوحداتنا العسكرية انفرطَت، وكتائبُ دروعنا ودباباتنا تلاشت. مرابضُ المدفعية استحالت قبوراً لأعدادِها من الجنود.. السماءُ ليست لنا، وقادتُنا عاجزون. لا رابط مع القيادة ولا خطط اعدُّوها يمكن أن تُطبَّق.. وحتماً سيكون تطبيقها جنون؛ ذلك أنَّ العدوَّ ماكرٌ أعدَّ لحربه كل ما يحتاج. أعدَّ العدَّة بتمكِّنٍ واتقان؛ أمّا نحنُ فبقينا نحارب بالشعارات، وهذه التي نحن فيها أطلقنا عليها" أم المعارك"."

كثيرة يا صديقي ساجد ذكرياتي مع نوفل فترة الشباب.

لقد كان لنوفل الكثير من الاصدقاء في فتوته..

كان دمِثاً، لبِقاً، نشيطاً، جريئاً.. شكلُه وهيأتُه، ابتسامتُه التي لا تفارق محياه، سرعتُه في الاستجابة لتقديم المساعدة والتقدّم لأدائِها، تفانيه في تقديم أيّةِ خدمةٍ تُطلب منه؛ كلُّ

هذه جعلت الفتية من اقرانه يحبّونه ويصطفون معه في أيِّ موقفٍ يتطلّب الجرأةَ والاقدام. ولقد ظلَّ اقرانُه على تواصلٍ معه حتى بعدما تفرّقوا وكبروا.. كانوا يراسلونه ويكتبون إليه في حبٍّ ورغبة منهم في عدم انقطاع.

هل تريد منّي أكثرَ من هذه المعلومات عن نوفل، يا ساجد؟"

وراح مالك يقهقه، ويقول متفكّهاً:" أنا مَن سأكون كاتب الرواية وليسَ أنت.. فكلُّ ما تكلمت به عن نوفل هو رواية كاملة وناجحة، أليس كذلك؟

القسم الثالث

(1)

أخبريني بأيِّ خوفٍ باطلٍ

وبأيِّ ظلالٍ مِن الحزنِ

تتوقَّفُ هذه القريحةُ المُدهِشةُ

عند شَفتي؟

پـول فاليري

حديث سهيلة

كانت سهيلة حيَّيةً ومتواضعةً ونقية كالتي صوَّرتها لي فاضلة... اضافةً لذلك وجدتُها كتاباً تزودني صفحاتُه بما أبغي، وتُشبع فضولي بما أرغب.

استقبلتني بعدما استدلّلتُ من كلمات فاضلة التي كتبتها كعنوان، وما اقترحت عليَّ أنْ أقوله لها حتى تتقبّل لقائي والحديث معي والافصاح عمّا أُريد؛ وفهمت أنَّ فاضلة اتَّصلَت بها وصوَّرَت لها حُسن مُرادي وطالبتها بمساعدتي قدرَ الامكان.

استقبلتني سهيلة في بيتها المتواضع وقد تجلَّت ملامحَ وجهها بعمر الخامسة والخمسين. لها عينان سوداوان واسعتان وجبهة كالمرآة وخدّان أسمران يتمتَّعان بحيويةِ مَن ارتوت بماءِ السماء وشفتان ململومتان تعرضان اسناناً بيض عند انفراجهما.. كانت امرأةَ النقاء والاصالة والوفاء. ثوبها الذي التقتني به أخضر داكن، تبعثَّرت وريداتٌ صفراء يانعة تتآلف والدكنة والاخضرار. وكانت غرفةُ الاستقبالِ كصالةٍ في متحف. دُهشتُ لذوق مَن أتى بلوحاتٍ، مُعلقة بتناسق على الجدران. لوحاتٌ مستنسخة للفنان الهولندي" رامبرانت" أعلمتني سهيلة بعدما أبصرتني اُحدّق بها لوحةً فلوحة أنَّ نوفل جلَبها من بغداد يوم كانَ شاباً متأثراً برسوم الفنانين العِظام، وتعاطف مع عظمةِ هذا الفنان الذي مات فقيراً. وكان يتحدث عن الجزء الأخير المأساوي من حياته حين يأتي الحديث مع اصدقاء له ومستمعين عَمَّن لم تنصفهم أمتهم في حياتِهم ويروح التاريخ يتولّى انصافهم، ولكنْ بعد حين. فقد كان يقص على مستمعيه أنَّ رامبرانت الذي كُتبت عنه مئات الكتب وآلاف المقالات بعد عقود وقرون مُشيدةً ومندهشة بفنّه العظيم والخالد مات وليس له أملاكاً ومقتنيات. فقد كُتب في مَحضرٍ الوفاة الذي أيده بالتوقيع الطبيب

الذي كان يتولّى علاجَه، والخادمة التي عاشت وإياه حتى آخر لحظات حياته اشياءً بائسة تمثَّلت بسريرٍ خشبي متهالك، ولحاف بالٍ، ووسادة مدعوكة وبالية هي الأخرى. إلى جانب منضدة خشبية عتيقة ومعها كرسي بقائمة مكسورة؛ وعلى الجدار كان منشف متسخ. أما النوافذ فكانت بلا ستائر.

وبعد شرب عصير برتقال قدمته لي سهيلة قادتني الى بابٍ موصد ادارت اكرته وقالت: هذه غرفة نوفل. تفضل اجلس على كرسيه لأعد لك فنجان قهوة."

" يااااه !! " هذه غرفة نوفل؟!.. هذا مكانه ؟!!... تمتم لساني كأنه ينطق دواخلي: " إنّ مكانَ الانسان هويتُه.. إنَّه كتابٌ بصفحات لا تحصى، خصوصاً إذا كان مكاناً مهمَّاً.

سقط نظري وأنا أقف عند باب الغرفة أتملّى المحتويات على ثلاثة روايات "أفراس الأعوام"، و"تراجيديا مدينة"، و"شارع باتا" لكاتب من مدينتنا اسمه زيد الشهيد أرّخها سردياً بفنية وحداثة، وكنت قرأت الروايات فأشّرتُ تعامل كاتبِها مع التأريخ بمرتكزاته، ومع الرواية بفنِّها وتقنياتها فجعل من الروايات الثلاث محط اهتمام أدبي؛ يبدو أنَّ نوفل وجّه بوصلةَ قراءتِه اليها.

بعد قليل.. أي بعد ارتشاف القهوة سريعاً راحت سهيلة تحدثني:

" كان أبي ميسورَ الحال ؛ بل كان غنياً غناً يُحسَد عليه. يأتيه المال من أرض وهبها الله له بلا جهدٍ كبيرٍ يسفحه، ولا تعامل تصاحبه الحدّة والغضب، أو شعور بالخسران. فهو الرابحُ أبداً. أليس الارض التي تتدفق بلوراتِ الملح لتكون بحيرة بلون الثلج تمتلىء بعد أسبوع من افراغِها هبّة أو كنزاً يُقدِّم فحواه بلا عرقٍ يُسفَح ولا جهد يُبذَل؟!.. لكن هل وجدنا مِن هذا الغنى ما يُشبع حالَنا ويحقّق مراداتنا فيكون لنا قَصراً عامراً مثلاً؛ أو بستاناً نسعدُ بالعيش بين أشجاره ونأكل ثماره، ونتنعش بأنواع وروده، ونتناول عسلَ نحلِه الذي يفترض أنْ يحوي عشرات الخلايا النشطة ؟!.. هل وظَّف المالَ لسعادتنا فجعلنا نرى العالم عبر سفرات ورحلات سياحية تعكس ترفَنا كوننا اغنياءَ مالٍ جاء هديّةً ثمينة من الله.. هذا ما لم يحصل؛ فقد بدَّد المالَ، وصار يبعثره.. يستدعي هذا لمجرد أنَّه قال فيه كلام فخر يروح يغدق عليه المال بلا حدود، ونحنُ جياع. ويأتي آخر فيملأ جيوبَه بما يتمنّى لأنه ذكرَ كرمه وأبّهته في احدى الجلسات، ونحنُ جياع. يبعث الأموالَ للعديد مِمَّن يراسلونه ويعلون شأنه في الكلام ويصرف لهم ما لا يخطُر ببالِهم، ونحن جياع... يبدد الثروة التي تغدقها عليه المملحة فلا يأبه لما ستأتي به الايام اذا جفَّت، والاقدار بسوئها اذا أقدمت."

بهرني كلامها مثلما أثارَ نوفل فضولي من رؤيتي له في المقهى. أمّا هي فحدست اهتمامي وربّما جسّت اعجابي بأسلوبها في الحديث، فواصلت:

"عُرف عن أبي أنه سريع الغضب، خصوصاً عندما نناقشه أنا ونوفل بينما أمّي تكتم غضبَها عليه خشية عقابه لها، فذاكرتنا الطفولية تحتفظ بمشاهد قسوته عليها بالضرب والشتم وتهديدها بالطرد.

ولقد نشأنا كعائلة غير قادرين على مجاراته، فهو الآمر ونحن المطيعون... وكثيراً ما كان يعنف نوفل فيواجهه نوفل بالصمت أو يتركه ينهال بعبارات الإهانة ويخرج عن البيت.

وعندما كبرنا وصرنا ننتقده حسبنا نتجاوز عليه، فراح يغضب لكلِّ كلمة تبدرُ منّا، يحمر وجهُه وتحتقن رقبتُه، ونرى ارتعاش يديه كأعلى درجات الانفعال، فنلوذ بالصمت ونتركه يهدأ تدريجياً.

وفي مرة وجد في سؤال وجهه نوفل عن أين تذهب اموال المملحة ونحن نعيش كما لو كنا فقراء نوعاً من التحدّي والحساب غير المقبول. فاحتقن وارتعش.. ازبد وأرعد؛ قبل أنْ يقول: لا دخلَ لك بما أملك، أنت تعيش في هذا البيت كيفما يكون، تأكل وتشرب وتنام، وعليك اطاعتي. ثم بصقَ بوجهِ نوفل الذي لأول مرة أراه ينفعل بشدّة ويرمي أبي بنظرات تطلق شرراً، كأنه يقف أمام عدو متجبِّر يود لو انقضَّ عليه وخنقه حتى الموت.. لكن نوفل مسح البصاق من وجهه، وخاطبه: " أنا احترمك كأبٍ لكنّي لا أطيعك عندما تتجنَّى على حياتي، وتريد ليومي ما كان به يومك وأنت بسنّي.. أحترمُك عندما تقدِّر تطلُّعاتي وما أريده ليومي القادم.. احترمك ساعةً تقول: " شق طريقَكَ يا ولدي، فحياتي ليست كحياتك؛ وما قبلته من أبي طائعاً، وإن لم يرضني، قد لا يرضيك".. احترمك وأنت تعاملني معاملة الابن الذي له حقوق عليك مثلما عليه واجبات لك."

احتقن وجه أبي، واحمرت عيناه. ورأيته يرفع العصا التي يتكئ عليها في مشيه فينهال بها على رأسه. ولولا خفة نوفل وسرعة ميلانه وتفادي الضربة لشقَّ له هامته... كتم نوفل الصرخة، لكنه واجه أبي باعتداد عكسَ شخصيةً متزنة، وخاطبه:" حياتي لي؛ وما تصرفتَ في الكثيرِ من حياتِكَ لا نعتَّدُ به كعائلة يُفترَض العيش بما يماشي العصر.. تصرفتَ كأنَّك تعيشُ حياةَ مَن عاشوا قبل قرون؛ وهذا منافي لمسار الحياةِ اليوم المبنية على التطوّرِ والتغيير."

ومن جديد احتقن وجه أبي، واحمرت عيناه، وزادَ على ذلك ارتعاش يديه واهتزاز جسده غضباً، فحاول بعزم النهوض وبما فيه من قوّةٍ لينهال بالعصا على نوفل، وكأنه يتَّخذ حكم قتله بكل رضا واصرار، فانكفأ على وجهه وسقط، وارتطم رأسه بحافة الباب لحظة همَّ نوفل بالخروج لتفادي غضبه الذي تفاقم فحوَّله إلى كتلةٍ هائجة هرب منها الشعور الانساني وبقي فيها جموحُ الانتقام... لحظتها خرج نوقل من الغرفة ولم يدرِ ما حصل، إلا على صرخةٍ بدرت مني ومن أمي فعاد خائفاً ومرتعباً ليرى أبي مرمياً على الارض، مُطلقاً شخيراً انتهى بلفظ الانفاس.... هذا كل ما جرى. لكنَّ الناس حسبوا ذلك من باب قتل ارتكبه نوفل بحق أبينا."

" تعنين أنَّه لم يقتله." قلت ومعي حيرة السؤال.

" وماذا تقول أنت؟ "

" من كلامك هذا أنه لم يرتكب فعل القتل.. ولا يُعد مُجرماً. فكيف أُتُّهِم إذاً وسجن، وظلت الاشاعات تلاحقه على أنَّه قاتل أبيه."

" الناس تريد موضوعاً تتحدث به.. تريد أن تلوك بألسنتها أحاديث دون خشية من الله، ودون اعتبار لمشاعرنا كعائلة فُجعنا بموتِ ابينا.. والقاضي الذي تولّى قضيته حكم عليه بالبراءة.. وجد أنَّ موتَ أبي ناتجٌ عن انفعال، ولم يكن لنوفل يداً في الوفاة."

***

من سهيلة تعرفت على الكثير من ممارسات نوفل حين يكون في البيت... ففي غرفته تتبعثر الكتب : كتبٌ بعضها على المنضدة تزاحم مجموعة الاوراق والمظاريف غير المفتوحة ، مظاريف لرسائل تأتيه سواء عن طريق البريد أو تسلم له باليد على أمل الاجابة عليها واعادتها لأصحابها الباحثين عن اجابة.. كتبٌ أسفل السرير.. كتبٌ في زاوية الغرفة، في الفسحة التي تسمح له فلا تعيق الحافات السفلى لملابسه المعلقة على الحائط بمسامير نيكلية متوزعة بتنسيق على لوح صاج مستطيل بطول خمسين سنتمتر اشتراه من البصرة عند زيارته للبريكان. لم يلم نفسه لان عليه حملها الى مدينته واحتمال سخرية شقيقته عند مشاهدتها له؛ سخرية مقرونة بسؤال أما كان الأفضل شراءه من هنا؟... هناك كتب تعلو خزانة حاجياته الصغيرة بما فيها عدة الحلاقة وفرشاة تنظيف الاسنان مع معجونها، كذلك فرشاة تلميع حذائه ، ومقص تشذيب شاربه، وعلب صغيرة جمع فيها صور فوتوغرافية صغيرة يحتاجها في المعاملات الرسمية، وعلب أكبر حجماً احتفظ فيها بتذكارات من زمن فتوته وشبابه عندما كان ينزل في أحد فنادق العاصمة فيجد في الحمّام عبوات صغيرة لشامبو واقراص صابون، وعيدان تنظيف الاذن، ومن الجوارير يأخذ شريطاً مُغلفاً وجد فيه عدداً من الأبر والخيوط وبعض الازرار وُضِعَت لإعانةِ النزيل في حالةِ فَقدِ زر من أزرارِ قميصِه.

اعلمتني أنَّها كانت تخفي أمر أخيها في الكتابة وملىء الصفحات يومياً عما يعتمل في ذهنه وما تجسده رؤاه، وما تريد ذاكرتُه تصويرَه أولا ثم تسكبه على الورق لئلا تتراكم الافكار وتصطدم العبارات، وتتناسل الجمل الشفاهية فتموت حين تمر الايام، وليس لها كي تبقى خالدة سوى أن تُدوَّن على الاسطر.

كانت وهي تدخل لترتيب غرفته تتجه أول ما تتجه الى قراءة ما كتب في الليلة الفائتة، إذ كان يستفيد من الليل بعد عودته من مشوار اللقاء والعزف للكتابة، فيصرف الوقت لما يقرب من الفجر ساكباً ما يراه يستحق التدوين وجدير بالاهتمام.

ولقد اندهشت الأخت لما يكتبه.

إن ما يكتب تراه يأتي كشيء من وادي السحر؛ من عالم غير عالم المدينة الراكد.. تندهش؛ لأن ما تقرأه غير ما تسمعه منه أثناء الحديث اليومي داخل البيت... فما تسمعه ما هو الا لغة البساطة. أما ما يدونه على الورق فشيء كثيراً ما يستعصي عليها فهمه؛ حتى وإنْ اعادت قراءته لأكثر من مرة... وفي غمرة مطالعاتها وتتبعها للأسطر يهتف في داخلها صوت يقول أن أخاها فيلسوف وحكيم؛ وإلا ما هذا الذي يكتبه بهذه الرصانة، بهذا السحر، بهذا الأسلوب العالي المستوى!

لقد وُجدت أنَّ ما يكتبه بعدما أطلق سراحه تشوبه السوداوية، وأنَّ ما يطرحُ من نقدٍ قد يثير حفيظة الآخرين. وربّما تؤدي به كتاباته ونقده اللاذع إلى قتله على أيدي المتشددين؛ أولئك الذين يرون فيه صوتاً مناهضاً لأفكارهم.

بعد اطلاق سراحه صار يلازم البيت عند عودته من العمل فلا يخرج كعادته اليومية التي عرف بها. فقط يأخذ من الاسبوع يومين يكرسهما للخروج. بينما الخمسة الأخرى فللمطالعة والتدوين؛ داخلا ميدان التحاور مع ذاته على رويّة؛ جاعلاً من التفكُّر وسيلةً لبلوغ ما يتكرس من خلاصة رؤاه، ثم الشعور بالارتياح بما افضى. إنَّ تزاحم الرؤى وتضاد الافكار خليقة بحاملها إلى سلوك طريق الهَوَس والعيش بفوضى لا مَخرج منها إن لم تتبدد، تماماً كالشحنات الكهربائية التي تحتاج إلى عامل تفريغها.

أخبرتني سهيلة أنَّ بقاءه جُلُّ الايام في البيت كان يسعدها ويجعلها في حالة اطمئنان عليه.. وصارت ما أنْ تخرج الى العمل وتعود حتى تتفاجأ بعديد الصفحات الممتلئة، وحين مطالعتها تحصد سنابل ارتياح كبير، وتجمع رؤى رضا عن نفسه لأنه أنتجَ ما اراد، وملأ ما تمنَّى.

قالت لي وهي تسلمني ظرفاً ازرق عتيقاً كان طرفٌ منه ظاهر من تحت أوراق ممتلئة بكتاباته كان لنوفل أصدقاء كثر في مدن عديدة يحبّون رفقته ويتذكّرونها بحميمية؛ لذلك كانوا يراسلونه ويفضون بما في ذاكرتهم من ذكريات معه.. اقرأ هذه الرسالة التي اعتدت رؤية نوفل يستخرج اوراقها من الظرف ليطالعها مراراً دون ملل.

أفردت الاوراق فوجدتها عبارة عن ذكريات مسترجعة يفوه بها صديق له اسمه ليث.

((هل تذكر يا نوفل جلساتنا الليلية المعجونة بالود والمقرونة بالآمال الكبيرة؟... اتذكر الرفقة الجميلة لأصدقائنا في المخيم عندما أطلقوا عليك اسم "آرتفُل دوجر" ونعتوني أنا باسم " بب " بعدما قرأ لنا مساعد آمر مخيمنا الكشفي رواية " الآمال الكبيرة " لـچارلز ديكنز وشخصية " بب " الفتى الصغير الذي جاء للسجين الهارب بمبرد من بيت أخته كي يفكَّ القيد من يديه ورجليه، وكافأه السجين بعدما كبر وبات شاباً بثروة كبيرة غيرت مجرى حياته ونقلته من العيشِ في ريف بائس ولعبٍ في مَقبرة بين الاجداث إلى عيشٍ في لندن واستمتاع بجو المدينة وبهرجتها وعلاقاتها الاجتماعية؟.

الحياة تغيرت يا نوفل؛ ومعها تغيرت الهويات.. فزهير – هل تذكر زهير؟ - الذي كان مزهواً بالتزامه وانضباطه داخل المخيم ويبالغ في هندامه وترتيب قيافته لدرجة كنا نتندر عليه بالحركات التي تشبه حركات النقيب ظافر الذي وجِّهته آمرية معسكر الرشيد ليكون آمراً للدورة فنكون نحن الفتية بعهدته، فنراه بقيافته الكاكية المهندمة وبسطاله البني اللامع وعصاه تحت ابطه الايسر، وهو يرفع كفَّه الأيمن الى جانب وجهه، جاعلاً اصبعه الأوسط يتماس مع نهاية حاجبه قرب الصدغ فيقوم اكثر من واحد منّا بتمثيل ما يفعل؛ هذا الزهير نحا منحى دينياً خالصاً فاعتكف في الجامع وغدا داعية بلحية كثة وثوب ابيض قصير، يقطع الطريق بين بيته والجامع وبالعكس يتمتم وشفتاه لا تتوقفان عن الحركة استغفارا

وطلب عفو... أما زيدون الذي كان ينزوي يطالع صور يقتطعها من المجلات والجرائد ومعها صور فوتوغرافية يشتريها بنقود يعطيها له الاب كيومية معتادة، صور گريـگوري بك، وكيرك دوگلاس، ويوسف وهبي، ويحيى شاهين، واستيفان روستي، واحمد رمزي، وحسين رياض فقد سافر الى روما ليلتقي عمر الشريف ويسأله كيف ارتقى الى العالمية وتجاوز المحلية؛ فلقد كان لديه طموح ان يقفز الى العالمية مباشرة إذ لا صناعة سينما محلية يُعتَّد بها عندنا في العراق كما تعرف.. هو لا يريد ان يسافر الى القاهرة ليتلقى ادواراً هامشية ويبقى كما بقي كنعان وصفي الذي توجّه اليها يوماً مُحمَّلا بحلم ان يكون نجماً بطلاً فكُبِحَ بأدوارٍ بسيطة لم تكن على مستوى طموحه وتطلعاته، مُكتفياً بما يُنسَب اليه من أدوار لا قيمة فنية لها ولا تأثير في عين المشاهد.

أتتذكر جميل؛ الفتى كان معنا في المعسكر تبدو عليه الخشية من الاختلاط ويفضل الوحدة والانعزال رغم انه صرح امام مساعد مدير المخيّم واسمعنا جميعاً أن رغبته في العزلة متأتية من تعنيف خالته وقسوته معه بعدما فقد أمه وتزوج ابيه خالته رغبة منه في ان تواصل الخالة تربية ابنه كما تربيه أمّه. إنّه الآن فنانٌ مسرحي نفض عنه غبار الخجل، ومزق شرنفة العزلة كما لو أنه قرر تحدي الحياة التي ضيقت عليه العيش بانفتاح وانشراح مع اقرانه، فدخل حين كبر اكاديمية الفنون في جامعة بغداد، قسم المسرح. لقد تخصص في تمثيل فن البانتومايم، فأجاد فيه.. هوَ الآن في العاصمة امستردام يقدم على خشبة المسرح الوطني الهولندي "ستادس سخاوبورخ" أعمالاً غاية في الابداع والاتقان؛ تشيد بأدائه أشهر الصحف والمجلات الهولندية..

وماذا اقول لك عن سرحان الذي كنّا نسميه السفيه لما عُرف عنه من هذر في الكلام واطلاق النكات السمجة، وعدم التكلم الا والسخرية من هذا والضحك على ذاك.. لقد غاب سرحان هذا عن الحي ولم يعد احد يلمحه.. غاب ما يربو على الستة اشهر عندما تناهى الى المسامع خبر وجوده في افغانستان مُنخرطاً مع ما يسمى بالمجاهدين يحمل السلاح ويحارب الروس الذين قال وصفهم في رسالة الى أهله بالكفار الذين احتلوا ذلك البلد الاسلامي وداسوا على صدره ويسعون لجعله قاعدة للإلحاد لتنطلق جحافلهم نحو غرب القارة لتهديم قبر الرسول وجعل البلاد الاسلامية بلاد كفار وزنادقة... وفي المقابل صار يحيى بسيم الذي كثيراً ما كان يعجبه أن يكون عريف حفل في الاماسي التي يشرف عليها معاون مدير المعسكر الاستاذ عبد المجيد صحفياً وقد حمل الجنسية الالمانية؛ وهو الآن اسم لامع في ميدان الصحافة، واشاهده كثيراً مع جوق الصحفيين الجالسين في الصف الامامي للمؤتمرات الصحفية التي تجيب فيها المستشارة الالمانية انجيلا ميركل على الاسئلة التي توجه اليها.. وعادة ما تكون اسئلته استفزازية ثاقبة تجعل المستشارة تشعر بالإحراج او هي تراجع نفسها في محاولة تقنين اجابة لا توقعها في بئر الهفوة التي تتلقفها الصحافة فتجعل منها موضوعاً يتشعب الى مواضيع، وفي كل موضوع يتوالد موضوعاً يستدعي النقاشات في ندوات تبثها المحطات التلفزيونية كمادة دسمة مثيرة لاهتمام المشاهدين فتجعلهم ينشدون الى الشاشات للاستماع للتحليلات الموضوعية المبنية على حقائق ووقائع يحاول المحلل جعلها صادقة يتقبلها المشاهد بقبول."

أتوقف عن القراءة فأرى عيني سهيلة تترقرقان بالدمع؛ أو هي تشجعني على مواصلة القراءة كي أًلم بصفحة من صفحات حياة نوفل:

" نعم؛ زهير الذي كان ينام معنا في الخيمة 180 باوند، وكنا عشرة تلاميذ نمد افرشتنا خمسة مقابل خمسة، وكان اكثرنا نشاطاً، إذ هو الذي برع في نصب الخيمة في اول يوم التقينا وطلب من كل عشرة تلاميذ نصب خيمتهم بأنفسهم بعدما تلقينا محاضرة سريعة من العريف المرافق للنقيب ظافر عن كيفية فك الخيمة من حبالها ومن ثم التحرك بتولّي اثنين لرفعها بالعمود الخشبي الذي يشكل مرتكزاً لها من الداخل، فيما يقوم ستة بشدِّ الحبال الجانبية ويوترونها فيتوجه اربعة يحملون المطارق الخشبية المتينة فينهالون بها على اوتاد بغية تثبيتها في الأرض، فتتشكل خيمة منتصبة تكون خير مأوى لمن نصبها بنجاح."

أخبرتني سهيلة أنَّها وجدت قصاصة كتب فيها مالك بعض مما يريد أن يكتبه في اجابته الى شفيق عن اصدقاء لم يذكره ليث في رسالته:

" أتعرف يا ليث، إنني أفكِّر بالكتابة عن اصدقاء لنا ربما سقطت اسماؤهم من ذاكرتك.. سأكتب عن جابر الحيّاني الذي درس الطب في انكلترا وعاد بشهادة البورد في جراحة القلب... سأكتب عن عبد الوهاب الذي انضم لكادر اعداد غذاء رواد فضاء أبولو 11 التي هبطت على القمر وعرض الشريط المرسل منهم آرمسترونك وهو يمسك بحاوية الطعام ويتناول عشاءه مبتسماً كأنه يعلن استعذابه للوجبة الشهية ويقدم شكره لمن اعدها.

سأقول كل ما يعتمل داخلي، كل ما يجول بخاطري وما أتمنى أن أكون؛ ذلك أنني في حال يتطلب مني أن لا أضمر بل أفصح؛ لا أكتم بل أعلن.. إنَّني الآن شخصٌ ثانٍ، تعالى لديه مستوى الطموح. والآمال شرعت بالاتساع.. آمل أن أكون مؤثراً أو فاعلاً؛ أن أقولَ أفكاري دون تردد، دون وجل، دون خشية. فما أنا فيه عائلياً لا يمكن السكوت عليه. وما يجري أمام ناظريَّ في مجتمع لا يدري أين يسير لا يمكن تغافله.. لقد تعلمت من البريكان كيف أكون عُصامياً أبني ذاتي البناء المُحكَم؛ وتعلمتُ من عمّي أنْ أكون ذا شخصية مؤثرة بتفكير فاعل ورأي لا أُفصح عنه إلا بعد تمحيصه وتعليله، ومن ثم الخروج بفاعليته.))

لفتت انتباهي واحدة من الأوراق المتراكمة وقد كانت مملوءة بالكلمات التي كثير منها مر عليها قلم الكتابة لحذفها من الفحوى والمضمون، من أجل أن يكون الافصاح متقناً، أو هو القلق الذي يعتري الكاتب فتتشوش لديه العبارة وتتضارب الكلمات...حدقت بها، ورحتُ أقرأ:

((الاتِّهامُ ضربٌ من توجيه السهام إلى القلب، تحرك الخنجر لطعنِ الخاصرة.. هو نوع من التجني إن لم تثبت الادانة، وهو قتلُ النقاءِ ومناداةٌ على الجحيم لزرعِ الشَّقاء في نفسٍ بريئة، وهو أيضاً حَفرٌ في هواء إن لم تكن المُعطيات صريحةً وواضحة.. صريحة اعتماداً على أدلةٍ قاطعة تحتكم إلى العقل بعيداً عن الحدَسِ والتهويمات؛ وواضحة لا تقبلُ اللَبسَ أو الاحتمالات إنّما وضعُ اليدِ بيقين.

يتّهموني بقتل أبي أولئك المجانين؛ دون أنْ يدركوا أنَّ قتل الأب جريمة لا تهبط كف السماحة على جبهتها ووجهها. إنَّها فعل أخرق؛ بل عارٌ لا يمكن محوه. لكن ماذا يفعل أيٌّ منّا حين يواجَه بمن يُطفىء أحلامه، بمن يستهين بما يرغب ويطلب، بمن يجابه بالاستهانة، ويوصم بالغباء والعته والاستهتار والنبذ؟.. ماذا يفعل أيٌّ منّا حين يواجه الحياة تتغير، والمعايير التقليدية تتبدل.. حياة يراد لها أن تُعاش وأنت في أدنى دركات الوضاعة والرداءة والتشرذم؛ وأنت وسط معايير ما عادت تتوافق وزمان يتغير ايقاعه بتسارعٍ مهول، ويراد منك التحرك على ايقاعٍ تهاوى وتبدّدَ وغدا بعيداً، بعيداً جداً؟... أين الآمال، أين الرؤى، أين الشمس التي أردتها بيدك مصباحاً يدحر هوة الديجور ويطمرها ليميل المدى نورانياً باهراً ومتوهجاً؟.. ما الذي يفعله المُطل من تلَّة فيرى بساتين الغير ضاجة بالثمر اليانع؛ والانهار دافقة بحب الربيع ونضارة الضفاف بينما اليبابُ عنوانُ ارضه، والصَّهدُ هويةُ الهجير الابدي: لا شجر، لا أفياء، لا يدٌ تلوح ببشرى حضور الربيع، لا بنت ضاحكة تتغنى بالفراشات.

ما الذي يفعله انسانٌ مَعلولُ الجسد، مَقطوع الكّف، مفقوء العينين؟

أنا كمن يصرخ في بريةٍ أو ينفخ في جراب مثقوب.

أحملُ قلبي ياقوتةً تُزيِّن صدر أهلي، وأمدُّ كفيّ رايةَ سلامٍ للآخرين.

أُردِّدُ في أذنِ التاريخ، ما ردَّدَه المتنبي يوماً:

أنا في أمَّةٍ تداركها الله// كصالحٍ في ثمودِ

كانت المملحةُ بلاداً ومالاً، فحوَّلَها أبي إلى يَدٍ بسطها للغير في حين غلَّها علينا؛ فعمَّ الشقاء في حياتنا، وتكرَّسَ البؤس... صارَ الخواء عنوان أمي، وثوب أختي، ولافتتي الممزقة.". فكيف من بعد ذلك يطرق الأمل باب انتظاري، ويدخلُ التفاؤلُ صديقاً مُحمَّلاً بالشوق لأُعانقه وأعيش على ايقاعٍ رَفَلَه في حياتي؟!))

(2)

فك اللغز.. المتابعة

بالاطلاع على المشوار الطويل عبر الأعوام والأحداث والعاطفة الجيّاشة التي نثرها مالك، وفاضلة، وسهيلة تشكل أمامي عالم واسع لحياة إنسانٍ كانت بانوراماً حيية لاشك أنها ستملأ الصفحات... بتعرفي على مجمل الحال، ووصولي إلى تصور أنَّ نوفل عرفان ليس قاتلاً إنَّما انساناً توخّى الأحلامَ تهفهف في رياض خياله الربيعي فاستحالت كوابيسَ ورؤى تبعث على القلق ، قررت متابعته كي ألمَّ بما يمكن أنْ أكتبه كرواية أسردها بالطريقة التي تصل الى القارىء سَلِسَةً ورائقة؛ عذبةً ورائِقة تُشبِع اللذاذة في التلقّي. أمِلتُ في

جعلها كتاباً تحرص الأجيال الحالية واللاحقة على اقتنائها(كما اقتَنَت رواية آلام فارتر لعقود وقرون)، وتكون كالعملة النقدية لا تخلو جيوب الأجيال المتوالية منها.. تُقرأ في المقاهي والمتنزهات، في الباصات والقطارات (كما أرى شعوب بلدان الشمال المتحضرة مهووسة بالقراءة في المقاهي والحدائق والباصات وفي المطاعم قبل أن يأتي الطعام؛ وعلى المصاطب في الأرصفة؛ تحت مظلات انتظار الحافلات، وغيرها من الاماكن العامة الاخرى)، تباع في المكتبات الكبيرة ودكاكين القرطاسية وأكشاك الطرق وعلى أرضية الأرصفة، في الصيدليات ومحلات العطارة والنجارة والحدادة، في الفنادق والمولات، في النوادي والمقاهي والكازينوهات والملاهي والبارات ومدن الالعاب والبحيرات والجزر السياحية، في القرى والأرياف والواحات، وحتى في أطراف الصحراء.. يمكن شراؤها من باعة الاقمشة والخضروات وباعة التوابل والمُعطّرات.. يتبارى الشباب من الجنسين على اقتنائها ويتباهون ويفتخرون بحملها واعلان مطالعتها بشغف ورواء مثلما يشير اليها الكبار وينصحون باقتنائها وقراءتها على الدوام.. أُشاهدُها تحت أذرع المارة وهم يقطعون الشوارع ويخترقون الاسواق؛ مثلما أُشاهدُها بارزة بعنوانها في الجيوب الجانبية لحقائب النساء وهنَّ يرتقين سلالم الحافلات فيستخرجنها عند الجلوس في مقاعدهن لينفصلن عن العالم بمطالعتها وممارسة السياحة الجميلة على صفحاتها وما ترسم من صور متحركة وما تجيش بأحاسيس مرهفة متوهجة؛ وألمح مراهقات يتفاخرن على بعض من قريناتهن بحيازتها ويعيبنَّ عليهن عدم امتلاكها.. أبصرها تُبادل كهدايا قيّمةٍ بين المحبين فلا ذكرى أوقع اثراً في النفس من ذكراها.. وأسمع المتحاورين عبر الهواتف يعد أحدهم الآخر بأنّه يحتفظ له بشيء ثمين أثمن من خاتم عقيق وأغلى من عقد ماس... وحسماً للقول أنّها كتاب الأجيال الذي لا تكتمل شخصياتهم إلّا بها؛ ولا يشعرون بطمأنينتهم الثقافية والمعرفية إلّا معها.

وفقا لهذا التصور كرّستَ معظمَ وقتي لمتابعة نوفل عرفان والتفكير فيه حتى لو كان ذلك على حساب راحتي وانهاك قلبي العليل.. أُتابعه من لحظة مبارحته البيت صباحاً مرتدياً قميصاً نصف كم أزرق سمائي وبنطلون رصاصي داكن وبحذاء صندل مشبّك. يقف للحظات أمام البيت وقد تأبط ثلاثة كتب، يطالع السماء كانه يخمن درجات الحرارة التي ستنتاب ذلك النهار ثم يتحرك خارجاً الى الشارع العام فيواجهه تقاطع مصيوي مع شارع باتا. يتفادى عربة ستوتة جاءت مسرعة فيحكم ضغطه على الكتب لئلا تقع أرضاً.. يواصل سيره قاطعاً نصف مسافة السوق ثم ينحرف يمينا فيدخل أزقة فرعية توصله الى شارع الجسر الحديدي حيث سيسير قليلاً ليجد نفسه أمام دائرة البريد مقر عمله"(البريد لم يُعد دائرة فعالة كالتي كانت قبل عقود؛ فقد أُنيط بها تسليم رواتب الرعاية الاجتماعية بعدما استحالت جزءً معطلاً من جهاز الدولة بفعل ثورة الاتصالات وانتقال البشرية من الكتابة على الورق كرسائل وبرقيات إلى استخدام الشبكة العنكبوتية والشاشة والضرب على أحرف الكيبورد. لم يعد للصحائف الورقية والظرف الازرق من أهمية؛ ولا وجود. وصناديق البريد الشخصية التي كان يتباهى بها عشاق التواصل البريدي أضحت فارغة يُعرّش فيها الهواء الراكد وغبار الصمت.). يلقي تحية الصباح على الشرطي المناط به حماية الدائرة ويدخل ليرسُمَ توقيعه في سجل دوام الموظفين؛ ثم يتخذ كرسيه المعهود وراء منضدة كتب على مقدمتها لافتة خشبية صغيرة " التوفير".

مع مرور الأيام وتوالي قراءاته ومطالعاته تفاقمت أزمة نوفل عرفان بالشعور بالحيف الكبير من سلوكِ أبيه الشائن تجاه العائلة. ذلك السلوك الذي أدّى إلى ضياعِ المملحة باندفاع المقاولين الطامعين وكل من هَبَّ ودَب لنهبها واقتسامها وجعلَ نوفل واسرتَه خالي الوفاض منها بعدما تفتَّت الآمال وصار الناسُ الذين يحرصون على أن تكون المملحة وخيرها لأهلها يتعرَّضون لِما تعرَّض هو وأسرته له وإنْ بتفاوتِ الأذى، وإنْ بنسبيةِ الاضطهاد.

(3)

وضع اليد على الجرح .. الاكتشاف

ليس عدلاً أنْ أبقى أسيرَ الجُّبن، وأنحني تحت سطوة التخاذل؛ فالنّايُ كما يحقّ لي توصيفَهُ سجّلٌ قولِ الحقيقة. هو كما أراه صحيفةٌ صوتيةٌ تنقلُ معاناة قلبٍ موجوع، وتؤكّد على ضرورة فَهمِ الحالِ واقرارِ الانصافِ من خلال حُكمٍ عادل.

لا يجب الاستمرار في التراجع بعد عدد من الخطوات المشحونة بالتصميم.. إنَّ ما يتولاه المرء في لحظة اتخاذ قرار يتجلى في الوصول والادراك ووضع اليد على الحقيقة المتوارية خلف حجب الإقدام تارة والتراجع تارات لاسيما عندما يكون ثمة مشروع حياة يتمثل بكتابة يراد لها أنْ تكون خالدة. لا بدَّ من النزول إلى الدربِ المفضي لتواجد نوفل عرفان ليلاً.. لابدَّ من مشاهدة جموع الشباب التي تتوافد كل ليلة للجلوس أمامه من أجل الاستماع لما يقول، وما يُفصح كي يغذّوا أنفسهم بطيب الكلام ويرتشفوا باستعذابٍ نقاء الرؤى.. لابدَّ من مشاهدة تعابيرِ وجههِ لحظة العزف وهو يدفع بهواءِ رئتيه الى جوفِ الناي ويوجّه الأصابع لتحتفي بألمِه، بعيداً عن الاعتقاد بأنَّه عزفٌ من أجل الاستمتاع وبعث اللذة الى قلوب الناس.

تلك الليلة...

من وراء الأكمة، من كثافة العتمة، من فضولي الجامح للرسو عند مرفأ اليقين شاهدته.. هو!.. هو!.. نوفل عرفان وليس غيره.. ليس بالقامةِ المحدودبة، ليس المنكفئ المتهالك.. كان المنتصبَ بيقين، المتحدَّثَ بصواب.. يتكلّم موجهاً النظرات إلى الجميع كأنه يعدُّهم فرداً فردا؛ أو كأنه يراجع ذاته إنْ كان يؤثرّ فيهم جميعاً. يطالعُ وباهتمام إنْ كان هناك مَن يَشعر بالتمَلمُل، إنْ كان هناك من لا يرغب بما يسمع... كانت تموّجات الضوء المنبعث من هامات شموع يجلبونها معهم فيشعلونها يومياً بعدما يجلسون بهيئة حرف نون وتروح تنعكس راقصة على الوجوه أو تتلاصَف في العيون.. وكانَ هو يقف كالنقطةِ يتحرَّك قليلاً أو يتمايل ليحكم اتّزانه على نديف الرمل تمرُّ نظراتُه على الوجوه فيتلمَّس عيوناً مُحدِّقة به باهتمام، وأفواهاً شبه مفتوحة تترجم الدهش، ومسامع مستعذبة بما تسمع، وذائقةً

مُعيدة ما يقول بتلقين خرافي مرغوب بوله. تفتح الاذهان ابوابها تستقبل كل مفردة يقولها أو عبارة يرددها.. مجمل ما يسمعون افكارٌ تثير اهتمامَهم فيخمِّنونها الشفاء لقلوبهم الظامئة للنور، والبلسَم الشافي لجملة الجراح المتتالية لأعوام حياتهم. حياة يرونها آيلة الى التبعثر والهباء إن لم يضعوا الخطو على سكة الضوء والتحرك صوب مرافىء تحقيق الحلم بصفتهم شباباً لابد أن يحلموا، وليس غير الحلم قطاراً يقلهم إلى المدن المرتجاة. مدن الصحو على شمس تغدق عليهم نورها الوضاء، ومسارات تأخذ بهم إلى اشباع الرغبات في البناء والعمل والتميز. فلقد صاروا يصرفون الاعوام بشهادات علمية تمنحها لهم الجامعات الرصينة ولكن لا أحد يهتم بها. ويهتفون"، عبر لافتات الاحتجاج في تظاهرات تجابه بالعنف، بمطامح شخصية حقّة يُنظر لها بعدم اكتراث. فحقُّهم يُسرق منهم لُيعطى لغيرهم ما جعل مستقبلهم مجهولاً، وأيامهم تتبدد متبعثرة متشظية.. لا أمل لانتشالهم من الواقع المرير الذي يعيشونه؛ ولا وعد يمنح لهم ليمنون النفس بانتظار وإن على بُعد.

اكتشفت أنَّ نوفل عرفان هذا له تأثير ساحر على مستمعيه. فهم يحفظون عبارات يقولها، وجمل يرددها؛ ومنها قوله " إنَّهُم يخذلون الشباب." وهي جملة تشدّد على فشلِ الانظمة في وضع البرامج العلمية والعملية لإعداد الشباب اعداداً جيلياً حضارياً وعصريًا وتسليمهم قيادة البناء.. كانَ الأولى، كما سمعته يردِّدها مراراً، بالأنظمة الاعتراف بالشباب كبُناة مَجد، وصنّاع مستقبل، وانتاج سعادة.. كان الأولى أنْ تضع البرامج لتكون العائلة عائلة مصغرة فاعلة ومنتجة لا مترهلة بعدد الأبناء وثقيلة بثقل المتطلبات والحاجات.

رأيت بعض المتحلقين من الحضور يعلنون أنَّهم يفكرون بالهجرة إلى بلدان الشمال سعياً للتغيير وبحثاً عن عمل يجدون فيه هويتهم كشباب طامح للبناء وساعي لتكريس الشخصية. فانبرى هو يُعلن رفضه؛ مُبدياً امتعاضه مع أنَّه أعلنَ احترامَهُ لما فاهوا به:

" لن أقف في صَفِّكم بهذا الخصوص، وليس ممَّن يرى الهربَ الى أمام خلاصة النتيجة الصح.. إنَّ التراص والانسجام مقترنان بالإصرار على احقاق الحق، وهما ما يجب أن يتحلّى به شباب اليوم. فاللجوءُ إلى بلدانِ الشمال ليس الحل؛ هناك مَن هاجروا ورحلوا، قطعوا الفيافي وخاضوا الأهوال، مات منهم مَن مات ووصل مَن وصل، لكنّهم لم يجدوا الهدفَ المبتغى... تلك الأوطان يا اصدقائي لأهلِها؛ هم مَن يَتمتعون بها ويقطفونَ ثِمار سرورِهم من أرضها أمّا مَن هاجر طالباً اللجوء والعون فقد ذاق الهوان... حدَّثني صديق وكان مهندساً مرموقاً في بلادنا أنه كان هناك يشكو البطالة والعوز فما تدفعه تلك البلدان لهم من اعانة فلسد الكفاف فقط، وانه سعى بحثيث السعي من أجل العمل فلم يجد غير أنْ يكون جامعَ اوراق الكلينكس الساقطة في حديقة يؤمها سكان تلك المدينة.. فلا عمل رصين يمكن لأحدكم الحصول عليه والتمتع بنتائجه هناك؛ ولا شعور بالمساواة. والتسامح الذي تجاهر به أمَمُ الغرب ما هو إلّا وجه من أوجه التعالي؛ ذلك أنَّهم يشعرون بالكبرياء والسيادة وما يعطفون عليك به هو أنْ يتسامحوا معك في العيش في بلدانهم، وما فكرةُ التسامح إلّا نظرة من عَلٍ على أُناس يرونَهم تحت."

ثم راح يتحدث عن حكوماتٍ لا تمُتّ لشعوبها بصلةٍ؛ وتتفنَّنُ في اختراع وفبركة وسائل الضحك عليهم.

" أروي لكم ما حدَّثني به صديقٌ عاش لفترة في بلد عربي، فقال إنَّ في ذلك البلد العربي كانت البطالةً هائلة والكساد يعم البلاد، والحكومة تبغي ادامة حركة عجلة مسيرتها، فلم تجد وسيلة ابتزاز قميئة وقبيحة تَتَّبعها مع المسحوقين والمهمَّشين العاطلين ممن لا تحوي جيوبهم ريالاً واحداً للجلوس في مقهى وشرب قدح شاي في حين تنأى عن الاغنياء الممتلئة جيوبهم بالمال المسروق. فقد اعلنت وعبر الصحافة الورقية وفي اكثر من صحيفة اعلاناً صغيراً مشفوعاً بصورة لمنصة استخراج بترول وسط مياه بحر مترامية. في الاعلان تفصح الشركة الفلانية لاستخراج وتكرير البترول في بحر الشمال عن حاجتها الى عمال وفنيين فمن يجد لديه القدرة والرغبة مراسلة الشركة على العنوان المرفق... وكان إنْ هبَّ العاطلون وهم يفتحون العيون على سعتها لامتصاص صورة المنصة وتحفيز المخيلة على الاشتغال وتصوير فيلم رومانسي رائع بطلُه ذلك العاطل الذي أجابت على ردّه الشركة ودفعت له تذكرة الطيران من مطار بلده الى مكان وجودها ثم سلَّمته دفعة أولى من أجوره كي يرتب حاله، ثم وهو يعمل على المنصة وقد ارتدى البدلة الزرقاء والقبعة البرتقالية وامسك بالمَفك أو انهمكَ في دوران فتح او اغلاق الانابيب المتواصلة المتَّجهة صوب اعماق البحر لتمتص ذلك الذهب الاسود الذي بمثابة دمٍ يغذي جسد آلات بناء بلدان تقدمت بفضله تكنلوجياً وعلمياً... ولم ينته الحلم إلا على كذبة ان دائرة البريد وبعدما باعت عشرات الالوف من الطوابع على الذين وقفوا طوابير ليلصقوها على الظروف الزرقاء، ظروف الفخ الذي تلقفهم وسقاهم الخيبة بعدما تسرب خبر كذبة وجود شركة لها منصات في عرض البحر وتحتاج لعمال وفنيين."

رأيته يتحدث بفصيح الكلام ووضوح الرؤى، والجميع يستمعون:

" إنَّنا نَجهلُ مصائرَنا وإنْ كُنا على صوابٍ في توقُّعِنا لكثيرٍ من الأفكار.. إنَّنا محكومونَ بقوةٍ خفيّة رغم ايماننا بقدراتنا.. إنَّ عالمنا اليوم لا يختلف عن عالم ما قبل قرن أو قرون؛ فرغبة الاستحواذ من قبل الغير القوي المتجبِّر لا تنتهي؛ ودافعُ الهيمنة هوَسٌ كبير عند من ينثر أمامنا ورود الاغراء بتقبل أفكاره وهي في الواقع أفكار مقرونة بالشوك والحسك. هل تعلمون أنهم ينظرون إلى افريقيا على أنَّها كنز لا يُقدر بثمن. لهذا فهي في تخطيطهم ورؤاهم وتصميمهم ثروة تخصّهم فقط، سيورثونها لإحفادهم. من هنا يعلنون الويل وإنْ بأسلوب الايماءة أو الهمس لأي قوة طامعة الاقتراب منها. فهي للأحفاد العظام؛ وليس غير الاحفاد ينعمون بخيراته؛ وأمّا أهل البلاد وأولادهم وأحفادهم فإلى قير".

*

في الليلة الثانية التي حضرت فيها وجدته يؤكد على مريديه من الشباب على أهمية العقل وضرورة تفعيله؛ فيقول:

((علينا العودة الى مَيدان العقل وتحفيز حجراته كي ندرك أينَ نحن وكيف نعيش، ولماذا؟ لا الى اللهاث وراء خدر العاطفة... علينا جعل الاسئلة التي نطلقها بعلمية وموضوعية أكثر من الاجابات التي تأتي متعثِّرة متهالكة لا تحمل عقار القناعة والثقة والتصديق.))

*

وفي اليوم الثالث كانت كان تأكيده على فعل القراءة وأهميته لهم:

((اقرأوا أيُّها الاصدقاء.. اقرأوا. فبالقراءة تستطيعون تفكيك شفرة كثير من الابهامات، تستطيعون التعرف على الوفير من الأسرار، وما وراء الأسرار... اقرأوا البيوت، والشوارع، والمدن، والبلدان. اقرأوا التاريخ ومعه الجغرافية؛ اقرأوا الفيزياء والكيمياء، وادخلوا جامحين إلى عالم الرياضيات تتفاعلون مع رموزها واشاراتها.. اقرأوا الأرض وما خبأت، والسماء وما حوت وتحوي ففيهما الاجابات اليقينية على استفهاماتنا. اقرأوا الحبَّ والعاطفة؛ الشر والخير، الجحود والانتقام. اقرأوا الدواخل والنوايا ولا تظلوا في غفلةٍ مُعرضين... لا تضع الخطو وأنت مُقبلٌ على النهار إلّا وبيدك كتاب؛ لا تنَم وترمي برأسك على الوسادة إلّا وبجانبها كتاب انتهيت من تناول وجبة شهية منه قبل الرحيل بزورق الكرى. لا تصرف وقتاً والكتابُ بعيدٌ عنك.))

*

وفي ليلةً تالية شدد في الكلام على استنهاض الهمم لدى الشباب، والتخلّي عن المدن الهامدة التي كالمقابر:

((كلُّ مدينة في بلداننا مقبرة.. علينا ايقاظ الموتى وازالة المقابر.. فإنْ كثرت المقابر وكبُرَت عَظُمت المأساة، وعمَّت اللامبالاة.. يزداد الهمود ويشيع السكون؛ وتتعالى بيارق " شِعليّه "خفاقة؛ فتموت الواجبات وتتوارى الحقوق، وتصبح مقولةُ همود الموتى حقيقة واقعة. ويُنظَر للناس السائرين في الشوارع والازقة وفي الاسواق على أنَّهم قبور تمشي.))

*

وفي ليلة أخرى وبعد أن تحدث عن الاخلاق واهميتها في صقل الانسان وجعله عنصراً فاعلاً يتجاوز بها الالتواءات والتعرجات أخرج من جيبه قصاصة من جريدة، وتناول شمعة على مقربة منه وراح يعلن أن ما سيقرؤه هو ما اعجبه من كتابة دونها صاحب رأي تعبيراً عما توصل اليه من تجربة حياتية خاضها، ويخوضها:

""إني ارى الدنيا بلا خير؛ تسير على غير هدى، والناس يتظاهرون بالورع والتقوى بينما الكذب مسلكهم والمراءات تصرف يومي يعيشونه بأقنعة متنوعة.. إنّي ارى الشر ضبعاً قميئاً وقبيحاً فيما أرى الخيرَ حملاً وديعاً لا يقوى على تجاوز دهاء الضبع وقبحه.. انّي ليغمرني العجب وتتفاقم الدهشة في مسارب الروح ترافقها أسئلة حيرى عن تقلب أهواء الناس مع الريح، وممارسة دهان الوجه حسب اللون الذي يحقق لهم منافعهم الذاتية حتى على حساب ذممهم وايمانهم وكراماتهم."

***

عند عودتي الى البيت، ولأجل أن اكتب ولا أدع يوماً من أيامي يذهب هباء أمسكت القلم ورحت أُدوِّن ما ستحتويه الرواية، فأعطيت لكتابتي عنوان(الاحلام والاوهام) كمقدمة تحتويها الصفحات التمهيدية منه:

أهو حلم أم وهم أنْ يحقق الانسان كل ما يتمناه؟.. أهي دراية أم غباء هو الشعور بجعل الأماني واقعاً مُعاشاً، والحياة طوع اليدين؛ يمكن أن تفرش أمامنا ما نريد كما هو الطلب من مصباح علاء الدين؟.. إليَّ أيتها الأفكار. كوني ساقيةً دافقة تروي سهوبَ الروح، مدّي يدَّ المصافحة لأخرج برأي يتساوق وما أعتقد.. أظن أنَّ شجرة الوهم نمت وانتصبت في بستان اللغة مقابل شجرة الحلم. وكان نموهما واحداً وإنْ رأى الآخرون شجرة الوهم تصغر شجرة الحلم بزمن، لكأنَّ شجرة الحلم انتشت بوجودها فأغرت بثمارها من مرَّ جوارها وحين مد كفاً ليقطفها غابت الثمرة عن عينه، وحاول.. وتعددت محاولاته، وعندها غضب وتحسَّر، وندب حظه.. وحين تكرر ندبان الحظ مِمَّن مروا ولم يمسكوا ثمرة الحلم شقَّ تربة البستان سويقٌ نما سريعاً، فاربك شجرة الحلم فاستحال في زمن قصير شجرةً تقارعُ شجرةَ الحُلمِ وتُعلِمُها بقلّةِ حيلتها.. من هنا بدا الأمر لنوفل عرفان أنَّ الوهم رديف الحلم في الحياة، وأنَّ الكثير من احلامِنا وجدناها متهالكةً ومتقهقرةً تحت قدمي الوهم. فنتج عن ذلك شعورٌ جديدٌ من الهمّ والحزنِ لم يألفه الانسان.. همٌ وحزنٌ تناهيا الى خيبةِ أملٍ تصيبُه مع توالي وجوده على الارض اكتشف أنَّه ضعيف، فترديه تَعِباً وكمِداً ومحبَطاً.. احباط يقوده الى الاحساس بعبثية وجوده على الارض.

كان نوفل عرفان يبنى آمالاً على تحقيق أفكاره ونجازة تطلعاته. كان يريد أن تكون مدينته نموذجاً تنتفي فيها تلال القمامة، تتميز بأعداد المتنزهات المتناسلة والمنشطرة فتفوق بوجودها الحفر التي تأكل الشوارع.. كان يريد أن يرى المدارس نماذج لمدن مصغرة فيها الطلبة والتلاميذ يعيشون على ايقاع النشاط المترع بالحيوية؛ ينهلون من نمير المعرفة لينتجوا مثل عاملات النحل في الخلية عسلاً ملوكياً للملكة الام رمز الامّة ولافتتها الباعثة على الفخار.

كانت لديه احلامٌ كبيرة...

كان يريد مشاهدة المختبرات الفيزيائية والكيميائية، قاعات الرياضة، قاعات المحاضرات مزودة بما تحتاج من عارضات الكترونية وسبورات ضوئية ومصورات مجسمة تهبط من سقف القاعات .. الورقة والقلم ينتفيان، الحاسوب هو حقيبة الطالب ومكتبته الموسوعية، كتاب المثقف المفتوح الذي لا تنتهي أوراقه، فالعالم مفتوح والفكر مطلق لا ينتهي... كان يأمل رؤية الناس في أبهى حلّة ، في أعلى مقام ، في فيض من حبور يوازي ما تتمتّع به البلاد من ثروة. يريد أن يشاهدهم كما كان يشاهد الثروة التي بيد أبيه يبددها بغير حساب علمي بل بتخبط ولا مبالاة.. فالثروة ينبغي أن توزع بعدالة واعتدال، بدقة وبحساب اقتصادي عقلاني مخطط له بإتقان: بلا هدر، بلا استغلال؛ بلا فوضى، بلا استحواذ... المُستغلون فيها منبوذون، مهانون، وضيعون فمَن بعد كل هذا يحاول اهانةَ نفسه فيرميها في جبِّ الذُّلِّ، والنِّفورِ، والازدراء.

رسمها في مخيلته واسبغ عليها حتمية التكون مدينة الحلم الجميل، والطبيعة الساحرة.. يوتوبيا تفوق يوتوبيا توماس مور، متجاوزة جمهورية افلاطون، تاركة وراءها مدينة الفارابي الفاضلة.

فكّرَها مدينةً طاردةً للمتسكعين، والتنابلة، والضائعين، والهامشيين.. جاذبة للمفكرين والمنتجين والبنّائين، متفردة في استقبالها لذوي العطاء والوفاء، مُرحِبةً بالمتفائلين الناظرين للغد على أنه أبهى من الحاضر، واسمى من الماضي. لا خرافة تشيع على ايقاع الأسطرة واللامعقول. لا حكايات كاذبة تعشش في العقول فتنخرها.

وصوله إلى هذه الحقيقة ارساه عند مرفأ التعبير عن خيبة الأمل بناي ينفخ فيه روحه لتنفث أساهاً كي ما تُضئِل ثقلَ ما يرميه الوهم في طريقها، وتشعره بإزاحةٍ لا بدَ منها وإلّا قادَ الامر الى الانتحار.

فضّل الانعزالَ وجعله ابجديةَ حياةٍ وجدولَ تصرُّف؛ إذ لا أمل في تغيير.. لا أمل في تبدل الحال وسط هيمنة جبروتية تؤسِّس للعنف والقمع، وتكبيل الفكر ورميه في غيهب لا فكاك منه. لم يجد ضالته إلّا في الشباب؛ فهُم رأسُ الرمح لتمزيقِ شرنقة الظلم والظلام؛ إذ بغير الشباب لا أمل يتحلّى بالكبرياء، ويساهم في صنع البهاء، ليجعلها حقيقةً ناصعة كالشمس... هكذا استنتجتُ .. وما الفراتُ في ليله، واللقاء بالشباب عنده الا مخدعٌ حانٍ يمنحه ألفةً ويجعلُه يشعرُ بالارتفاعِ، دافعاً روحه الى العلياء، مُتطهرةً من ادرانِ النهار الذي يُمطر عليه غبار صراع الانسان مع أخيه الانسان. والاثنان، الانسان وأخوه، يعلمان انهما سائران في طريق الهَباء وصولاً الى الفناء. إنَّ عليه أنْ يكون غامضاً ومتماهياً إزاء أولئك الذين يضمرون له الغيظ وينتظرون حيان الاطاحة بأفكاره، وتهشيم معتقداته بينما يتجلّى واضحاً وضوح الحقيقة التي تتباهى بعفتها، وشرفها، ونقائه.

أيُّها القمر الغائب في هذا الليل، يا متوارٍ عمّن يبتغيك رفيقاً احتاجك اللحظة كي تهمي لونك الفضي على وجه نوفل عرفان كي أتملّى خارطته وابحث في مسارب عينيه عن معرفة ما يريد عمله، ما يريد تسويته.

أيها القمر أخرج لي من ما وراء الافق، وارتفع بدراً، ثم هبني محاقك الجميل ليمنحني الطاقة في التحرك الى أمام ومواجهة نوفل عرفان، لأتقدم برجاء قبولي واحداً من اتباعه. فأنا بحاجة لما يشبع جوعي من ثمار علمه، ويروي عطشي من عذيب ماء سواقيه المعرفية.

لكنني بعد وقت من الكلام والاستماع، من الاسئلة والاجابات وجدتني أتراجع إلى الخلف، مولياً لقدميَّ التشبث بالرمل وعدم ابداء حركة تصدر صوتاً؛ مؤجِّلاً تصميمي لوقتٍ آخر؛ فانسحبتُ انسحاب الذين لا يريدون للآخرين اكتشافهم.

التراجع والانسحاب والوصول الى رقعة الأمان أخذوني الى طريقٍ تفتَّحت على ذراته مسارات التفكير والتصوّر والتخيّل. رحت أعلن مع ذاتي مشاهدتي لنموذج مثقف يحملُ فكراً ويُعلنُ نظريةً.. يصفُ واقعاً وينتقدُ اعرافاً، يُهندس جغرافيةً ويصنع حلولاً... لا يمكن لمثل من نطق بما سمعت، وفاه بما يُحسب عند التحليل والتصور مساراً موضوعياً للبناء

الاجتماعي أنْ يَقتُل، لا يمكن أن يتجنّى؛ وليس من الانصافِ اتهامَه بما ليسَ فيه.. يتجلّى أماميَ الانسان المتعلم المثقف الذي سفحَ الاعوام وشهد الاحداث؛ رافق وصاحب، رأى وارتأى. فلا يمكن بعد هذا إلا الاعتراف بأنه الرائي الذي ينبغي أنْ يُحتذى. وكان مُحقاً إذ وقف بالضد من أفعال أبيه عرفان، وجابهه بالنقد وعدم الرضا.. فعرفان الأب هذا شبيه برؤساء دولٍ تعالوا على مواطنيهم فراحوا يتصرفون تصرّف المجانين الذين لا يقدرون وجودهم، ولا يرتضون أحداً يطالبهم بأن يكونوا على قدر المسؤوليةِ، ومستوى الأحداث.

ما شاهدتُه وما سمعته وما تجمعت لديَّ من حصيلة الحوار عبر اسئلة المتحاورين معه والمستمعين لردّه زرع يقيناً لا يحيد.. يقين أنني رأيت ما يمكن المجاهرة به، والاعلان دون خشية ، مُفَكِّراً.... نعم؛ مُفكِرٌ ذاك الذي يتَّصِفُ بالرأي السديد، والشجاعة الفائقة، والخروج عن المألوف بدافع التغيير لا التصمّغ، الانفتاح على الجديد لا الاحتواء داخل القديم.

بانتهاء اللقاء الذي بمثابة محاضرة تُحيطها السريّة أشاهد الجمع ينهضون من أماكنهم فيتجهون الى القوارب المتكئة على المد الرملي. يعتلوها وتروح المجاذيف توجه القوارب صوب الضفة البعيدة؛ ومن هناك أبصرهم يعتلون السلم المرمري ويتفرقون فرادا خشية من عين ترصدهم فتظن بهم الظن السيء، وبهذا يتفادون ما هو مؤذٍ لهم وإن هم يشعرون بما لا يضر الآخرين.. أمّا الباقي مِمّن لا يرغبون العبور بالقوارب فيتخذون الدرب الصاعد الى الشارع المعبد، ومن هناك يفضّلون عبور الجسر مشياً أو يتوجه مَن هُم في الصوب الصغير إلى بيته وقد امتلأت قلوبُ المستمعين برسالة التطلع إلى أمام معتمدين يقين أنَّ الأمام هو مبعث النور أمّا الخلف فغدا ذكرى يؤرخ للإنسانية فعلها على مر العصور.

فضولي المهيمن دفعني إلى ما يفعله وقد انبرت في الرأس عدة تساؤلات : أيذهب إلى بيته بعد آخر مستمع؟ لماذا لم يعتل قارباً ويذهب الى بيته صحبة أحد المستمعين من مريديه ؟ أتراه يفضل السير مشياً مختلياً بذاته فيأخذ المسار الرملي صعودا الى الشارع المعبد ؟... فضولي جعلني اواصل تطلعي من وراء الأكمة فأشاهده يبقى وحيداً دون ان ينبثق من أحد مستمعيه دعوة لمصاحبته او اندهاشاً لبقائه وعدم التحرك مثلهم إلى حيث مسكنه.

فضولي أظهر لي أنه يجلس على حافة زورق مائل في رقعة رملية ليس بعيداً عن حافة النهر؛ يدخن سيجارة وينفث دخانها بارتياح؛ ثم بعد لحظات من التأمل والهدوء النفسي والشعور، كما حدَست، بالاستعداد والتهيؤ يبحث في لفافة كانت مع لفافة الساندويچ التي يأتي بها لتكون عشاءً له يهنأ لتناولها عند حافة النهر، فيستخرج ناياً.. الناي الذي ترجمته حوار نوفل مع العالم الذي يحيطه.. فبعد أن تحاور مَع مريديه ومع مَن هُم يتقاربون ورأيه وتطلعاته يرى عليه التحاور مع العالم. فليس عدلاً البقاء يحاور الذات ونخبة من المتعالين على جراحاتهم.. إنَّ عدم الاكتفاء بذلك هو ما يدفعه الى الشعور بضرورة اطلاع العالم على رؤاه، ليس بالكلام لأنَّ هناك الاغلبية التي لا تنصت لما يقول بالكلمات، ولا تتقبل ما يقوله. بل يحسبون ما يقول تجنياً على الآباء والاعراف، على القيم وما جُبلت عليه الاجيال، على الارث المقدس والعطايا السماوية. لذا وجد الناي وسيطاً

صوتياً يبث من خلاله شجنه وحزنه ورثاءَه لحياة تنصرف بالتقهقر، وتُعاش بالهباء والوباء القاتل لكل فجر يأتي بشيراً لنهار مشرق.

يمسك الناي ويرح يوزّع اصابعه على الثقوب، ثم يرفعه إلى شفتيه.. يجعله منحرفاً قليلاً إلى الشمال من طرفه البعيد؛ وإذ يتأكد من الوضع المناسب يدفع بهواء رئتيه فتشرع سيمفونية الألم مصحوبةً بقصيدة الجراح. سفينةُ آهٍ تُبحر إلى المديات المرتجاة على ايقاعٍ توقع بحارتها قدومِ عواصف تطيح بهيبتهم وأحلامهم بصيد ثمين.

يشرع الناي بالنزف فيسري نهرِ اللوعةِ مُتدفقاً من سُهوب الروح.. يقول الحزن الابدي لواقعٍ اعتاش على الآلام، وأمّةٍ جعلت من أيامها مُعلقة من مُعلقات جلدِ الذات.. مازوشية ترتأيها عَذبةً وحيية ورائقة، بل تتشوق لها فتصنعها مهنةً للألم والكمد والفجيعة... ومع الطعن بالخناجر ورؤية الدم المسفوح يجري انهاراً من القلب تتدفق رثاءات الأجيال فتقصُّ فشلَها وتهالكاتها وانكفاءاتها، تبعثُّرَها وضياعَ آمالها، موت أمانيها وانتحار اشواقها على دكّة الخنوع وفي وادي الذل.

***

في ليلةٍ نمتُ متعباً بعد ساعات كان فيها قلبي يرسل اشارات القلق، ويعلن عن وجعٍ وتعثر وأنا أطمئنه وأُهَدهِده كما يُهدهَد الطفل. تلك الليلة رأيت في ما يرى النائم نوفل عرفان يسير في صحراء موحشة. ذلك الكابوس أوجد في نفسي حالة من التطيّر... خشيت، وخفت، وارتعبت، وتشاءمت، وحدست أمراً جللاً قد يحصل للرجل. ولم يكد الليل يكسو المدينة ويعتم الأمكنة حتى هرعت عابراً الجسر، ومتخذاً الدرب الرملي الى حيث اشاهده يومياً يمطر كلماته فيتلقفها أديم نظرات اتباعه ومريديه العطاشى.

ولقد صدمتُ بما رأيت... رأيتُ المكان خالياً وساكناً، وموحشاً.. ولم اسمع سوى صدى كلام نطق به ليلة أمس.

في صباح اليوم التالي هرعتُ الى دائرة البريد لأطمئنَّ على وجوده وادخل لأقدم نفسي اليه وأُعلمه بمشروعي الروائي الذي يتناول شخصه كبطل له.... فوجئت بالكرسي فارغاً، ولم يكن نوفل عرفان هناك... اعلمتني احدى زميلاته أنّه استحصل اجازة لمدة اسبوع بغية السفر ولم يعلن وجهة سفره... تلك الخيبة رافقتني وأنا اترك دائرة البريد واتّجه الى مقهى فايق لعلّي أجد الجواب عند مالك؛ لكن مالك أبدى بروداً وأعلمني أنَّ تلك حالة من حالات نوفل؛ وهو البرود والجواب الذي حصلت عليه من اتصالي الهاتفي بفاضلة. ولم أجد بدّاً من أنْ أذهب الى بيته حيث سهيلة التي ستوافيني بالجواب الذي يلقي الضوء على غيابه.

وكان جواب سهيلة كجواب زملائه في العمل؛ كجواب مالك وفاضلة؛ كجواب سهيلة :" عادة لا يعلمنا بوجهة سفره أو غيابه."

وبغية طمأنتي رسمت ملامح تهدئة على وجهها، قالت: لكنّه سيعود.. سيعود حالما تنتهي أيام اجازته."

وكان عليَّ انتظار عودته وإنْ كانَ الأسبوعُ طويلاً.

بي خشية أن يخذلني هذا الخافق العليل بين أضلعي.. والطبيب المختص دقَّ بالأمس جرس الانذار وهو يطالع تخطيط حركة القلب في الشريط الورقي ورسم الابرة الصاعد بقوة، والنازلة بقوة.

سأنتظرك نوفل عرفان.

سأتعالى على وجع القلب.

سأكتبك رواية كاملة.

(4)

ساجد روضان والحلم الطعين

مرَّ الاسبوعُ ثقيلاً على قلب ساجد روضان؛ وكان يمنّي النفس بمشاهدة الرجل يجلس خلف منضدته في دائرة البريد بعد انتهاء اجازته فيكون اللقاء حميمياً، إذ فكَّر أن يُعلمه بفكرة كتابة الرواية؛ لكنَّ كرسي نوفل عرفان وراء منضدته ظلَّ فارغاً؛ والموظفات أبدين اندهاشاً لتخلف زميلهن، فليس من عادته تجاوز زمن اجازته، وليس من عادته وضع مدير الدائرة في موقف محرج يشير فيه إلى تسجيل غيابه وتحمل تبعات الغياب بعقوبة ثقيلة تمس شؤونه المالية.

وكان أنْ أوشك الاسبوع الثاني وكاد الثالث أنْ يدخل قبل مشاهدة نوفل عند باب الدائرة ويتوجه لمدير دائرته ليقدم اعتذاره عن الغياب، فقد كان في سفرة التقاء أصدقاء له، عاش معهم في فترات متفاوتة من العمر قرروا التجمع واللقاء في موعد حدده الجميع. وكان المُقرر أنْ تكون مدته أسبوعاً واحداً فامتد إلى الثاني... إنَّها الرفقة الحميمة التي حتَّمت اللقاء المفتوح وأنستهم من فرط سعادتهم كم صرفوا من الأيام.

كان الأمل والأمنية في قلب ساجد روضان بلقاء نوفل عرفان يوسّعان الشريان الأبهر؛ ويحثان البطينين على العمل بانسيابية، ويقولان للأذينين :" ساعداني على البقاء بحيويتكما فلي مع الرجل لقاءٌ كي ابدأ ماراثون الكتابة، فقد كتبتُ الكثير عنه في مشروعِ عُمرٍ وأريدُ اكماله بثبات ويقين". بَيدَ أنَّ القلب، في ومضة انكسار خاطفة، خذله؛ والشريان الأبهر عجز عن نقل الدم لأنَّ البطينين والأذينين تهالكوا، وتوقفوا في لحظة واحدة تركت الجسد مُسجّى على السرير والروح تصعد في أوج شبابها وهي في لهفة معانقة روح نوفل عرفان التائقة الى التنوير والأنوار.

وكان صوت الناي آخر ما تخيّل ساجد روضان سماعه وهو في رحلة اغفاءة العينين.

ولم يلحق بعودة نوفل عرفان من الإجازة.

*

الموظفات في اليوم التالي أعلمنَ نوفل عرفان أنَّ شاباً اسمه ساجد روضان جاء لأكثر من مرة يسأل عنه.

" ساجد روضان.. ساجد روضان؟!".. راح نوفل يفتش في حجرات الذاكرة ودهاليزها عن هكذا اسم ، فلم يفلح.

هزَّ رأسَه كتعبيرٍ عن الفَشل، وهو يقدِّمُ شكرَه لاهتمامِ زملائه الموظفين والموظفات بالأمر.

***

بوفاة ساجد روضان ومرور أربعين يوماً على وفاته دخلت أمُّه الى غرفته لتشرع بالتعرف على مقتنياته والتبرع بملابسه إلى الفقراء.

في جارور منضدته المركونة في زاوية الغرفة وجدت حزمَ أوراق وقصاصات بعضها بأسطر ملأتها الكلمات، وبعض كانت تضم عبارات وجملاً غير مكتملة. جمعتها، وخرجت.

ألقت بها في حاوية حرق القمامة المركونة عند حافة رصيف الشارع.

سكبت نفطاً من قارورة زجاجية، ثم أشعلت عود ثقاب ورمته في بطن الحاوية التي سرعان ما أفصحت عن دخانٍ يتعالى، وهسيس ورق يحترق إلّا من حزمةٍ أبت إلا أنْ تتحرر من مدار النار دفعت بها نفثةُ هواءٍ هاربة من عصف النار، بعيداً.. رفعها بعد حين فتى كان في طريقه الى بيته.

رفعها بلهفةٍ، وراح يطالع أسطرها الأولى:

" إنَّهم فتيةٌ، تناموا وتباروا في عزمِهم وتصميمِهم على التغيير.. سيزلزلون الأرض بجموعِهم الهادرةِ؛ وينبثقون مِن تحتَ أرجلِ مَن ظنّهم حفنةَ أطفالٍ سيفرون من أول رشقةِ رصاصٍ أو دسيسة تغتال حلمَهم في بلادٍ خطفها منهم مَن رفعوا، زيفاً ومراءاتٍ، ألويةَ التحرر ونيل الكرامة."

السماوة

أيلول 2022

ببلوغرافيا

زيد الشهيد: هو زيد عبد الشهيد دحام عبد الله ؛ مواليد مدينة السماوة – العراق.. تولد: 10 مايس/مايو 1953، بكلوريوس لغة إنكليزية -جامعة بغداد - سنة التخرج 1983 هو الأبن الخامس لستة أخوة وثلاث أخوات.

شغف بالأدب منذ صغره فقرأ ما على رفوف مكتبة بيتية جمع فيها أخوتُه الذين يكبرونه من كتب أدبية وفلسفية مثلما اطّلع على ما جمعه أبوه من كتبٍ دينية في صناديق كارتونية عديدة. استهواه الشعر ثم اخذته القصة والترجمة والنقد الأدبي، وأخيراً سرقته الرواية ليرفل على خميلة مدها الصعب ولكن الجميل. ساهم في بحوث ودراسات عديدة لمهرجانات وملتقيات كمهرجان المربد لأكثر من مرة وملتقى السياب الأول والثاني وملتقى الرواية الأول ومهرجان الحبوبي ومهرجان المتنبي وغيرها. اصدر مجلة ((تراسيم)) عام 2009 وشغل رئيس تحريرها كمجلة فصلية تعنى بالقصة القصيرة جداً، وهي أول مجلة تصدر في العراق وتعنى بهذا اللون الادبي.

عمل مدرساً لمادة اللغة الإنكليزية في المدارس الثانوية: العراق واليمن وليبيا.. وقضى اربعين عاماً في المهنة التربوية.

عضو اتحاد الادباء والكتاب العراقي.

عضو اتحاد الادباء العرب.

عضو نقابة الفنانين.. حقل الموسيقى

عضو جمعية الفنانين التشكيليين فرع المثنى

معلومات مضافة لسيرة زيد الشهيد

حرر وقدم الناقد الدكتور فاضل عبود التميمي كتاب (حفيد اوروك.. قراءات في ادب زيد الشهيد) تضمنت دراسات بحثية لأساتذة اكاديميين ونقاد عن دار تموز - دمشق -2009

أصدرَ الناقد الدكتور علي متعب جاسم كتاب (من ذات المبدع إلى الذات المبدعة.. زيد الشهيد في حواراته) عن دار أمل الجديدة- دمشق 2016

اصدر الناقد الدكتور عزيز حسين علي الموسوي كتاب (كتاب الناس.. النزعة الإنسانية في أدب زيد الشهيد الروائي) عن دار أمل الجديدة - دمشق 2018

اصدرت الناقدة الدكتورة فوزية لعيوس الجابري كتاب (فن الرواية في سرديات زيد الشهيد) عن دار أمل الجديدة - دمشق 2019

اصدر الناقد حميد الحريزي كتاب(الابداع والتجديد في روايات زيد الشهيد) عن دار رؤى - العراق 2021

ولقد نال الباحثون الاتية اسماؤهم على شهادة الماجستير في اعمال زيد الشهيد، وكما مبين أدناه:

(الشخصية في روايات زيد الشهيد) للباحثة وصال طارق العباسي– عن جامعة سمراء 2014.

(تقنيات السرد في روايات زيد الشهيد) للباحث علاء كريم عاجل من جامعة المصطفى العالمية – فرع طهران 2016.

(التمثُّل السّردي للتاريخ في روايات زيد الشهيد) للباحثة مها خالد سلمان من كلية التربية للعلوم الإنسانية – جامعة ديالى 2018.

اطروحة دكتوراه بعنوان (المرجعيات الثقافية في منجز زيد الشهيد الروائي) قدمها ونالها الباحث ابراهيم خليل عجيل الاسدي من كلية الآداب-جامعة القادسية 2021 .

إصداراته

1993 صدرت له مجموعة (مدينة الحجر) القصصية، إصدارات اتحاد الأدباء العراق، تسلسل.

2004 اصدر مجموعته الشعرية (أمي والسراويل) عن دار أزمنة - عمان.

2003 صدرت له (حكايات عن الغرف المعلقة) قصص قصيرة جداً، دار أزمنة.

2006 أصدر رواية (سبت يا ثلاثاء) عن دار أزمنة – عمّان.

2008 أصدر مجموعة (اش ليبه دش) القصصية عن دار تراسيم – بغداد.

2008 صدر له كتاب نقدي (من الأدب الروائي– دراسة وتحليل) عن دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد.

2009 أصدر مجلة (تراسيم) التي تعنى بالقصة القصيرة جدًا ويرأس تحريرها. وهي أول مجلة عراقية تعنى بالقصة القصيرة جدًا.

2009 أصدر كتاب ترجمة مسرحية (طريق ضيق باتجاه الشمال العميق) للكاتب الإنكليزي ادوارد بوند.

2009 أصدر كتاب قصصي (أسفل فنارات الوقيعة) عن دار الينابيع– دمشق يضم مجاميعه القصصية الثلاث (مدينة الحجر) و (فضاءات التيه) و (إش ليبه دِش).

2010 أصدر رواية (فراسخ لآهات تنتظر) عن دار الينابيع-دمشق.

2010 أصدر كتاب (الرؤى والأمكنة) نصوص مستلة من ذاكرة المكان عن دار الينابيع-دمشق.

2010 أصدر (سبت يا ثلاثاء) طبعة ثانية عن دار الينابيع-دمشق.

2010 أصدر (فم الصحراء الناده) قصص قصيرة جدًا، عن دار رند – دمشق

2010 أصدر (سحر المسنجر) قصص قصيرة جداً. عن دار رند - دمشق

2010 أصدر رواية (أفراس الأعوام)، عن دار رند – دمشق.

2012 أصدر (نساءٌ تراب) قصص قصيرة جداً عن دار رند- دمشق.

2012 اصدر كتاب ترجمة رواية (الجواز THE PASSPORT) لهيرتا موللر الحائزة على جائزة نوبل للآداب عام 2009، عن دار تموز - دمشق

2012 اصدر الطبعة الثانية من رواية (أفراس الاعوام) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت

2013 اصدر الطبعة الثانية من رواية (فراسخ لآهات تنتظر) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت

2013 اصدر رواية (اسم العربة أو الرجل الذي تحاور مع النار) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت

2014 اصدر كتاب (مملكة الابداع) عن دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد

2016 اصدر كتاب ترجمة (أبو الهول بلا سر) – قصص عالمية عن دار أمل الجديدة

2016 اصدر المجموعة الشعرية (أشجان الغرباء) عن دار أمل الجديدة – دمشق

2016 اصدر رواية (جاسم وجوليا) عن دار أمل الجديدة - دمشق

2016 اصدر رواية (شارع باتا)، عن دار أمل الجديدة- دمشق

اصدر الرباعية الروائية:

1-(الليل في نُعمائه) عن دار أمل الجديدة - دمشق 2016

2- (الليل في عليائه) عن دار أمل الجديدة - دمشق 2019

3- (الليل في نقائه) عن دار أمل الجديدة - دمشق 2019

4- (الليل في بهائه) عن دار أمل الجديدة - دمشق 2019

2017 اصدر رواية (السّفر والأسفار) عن دار أمل الجديدة –دمشق

2020 اصدر المجموعة القصصية (قصاصات من كتاب الصحراء) عن دار الورشة- بغداد

2021 اصدر كتاب(السماوة في القرن العشرين- ج1) عن دار مسامير-السماوة

2022 اصدر المجموعة الشعرية (دولةٌ داخل قلبي) عن دار أمل الجديدة – دمشق

2022 اصدر المجموعة القصصية (قصاصات من كتاب الصحراء) عن دار أمل الجديدة- دمشق

2022 اصدر كتاب (السماوة في القرن العشري|) الجزء الاول عن دار الياسمين- السماوة- العراق.

الجوائز

الجائزة الأولى في مسابقة (تموز الكبرى) التي إقامتها صحيفة (الجمهورية) – بغداد عام 1993.

الجائزة الأولى في مسابقة (الأدباء التربويين) في الشعر التي أقيمت في محافظة واسط 2007.

الجائزة الأولى في مسابقة (جعفر الخليلي) للقصة القصيرة التي أقامها اتحاد الأدباء فرع النجف 2009.

الجائزة الأولى في مسابقة (عبد الإله الصائغ) في القصة القصيرة التي أقامتها مؤسسة النور في السويد 2009.

الجائزة الثانية في مسابقة القصة التي أقامتها دار الشؤون الثقافية العامة 2009 .

الجائزة الثانية في مسابقة القصة التي اقامتها هيئة النزاهة العامة – المسابقة الأولى 2010 عن قصة (بعد التحية) التي احتوتها مجموعة (فضاءات التيه).

الجائزة الاولى في مسابقة الرواية التي اقامتها دار الشؤون الثقافية العامة 2011 عن روايته (أفراس الأعوام)

الجائزة الاولى في مسابقة القصة القصيرة جداً التي اقامها (منتدى نازك الملائكة) – بغداد 2012

رواية

زيد الشهيد

قاتل أبيه

ISBN 978-9922-728-93-3

Killer of his Father

Novel

Zaid Al-Shaheed

"قاتل أبيه" خطاب سردي يرتئي مؤلفه زيد الشهيد اقبال القارىء عليه بشوق، ويطالعه بلذاذة. يتحرك في دروبه ويدخل منعطفاته؛ حتى إذا أدرك منتهاه شعر باشباع ذات التهمت كل ما هو نافع وصالح ومفيد من تجارب الحياة، ومجرياتها، وحكمها. وما الحكم إلا شموع هدي تنير دواخل الانسان ومحيطه، وتفك كثيرا من الشفرات والألغاز التي تواجهه. وهذا أسلوب اختطه الشهيد، ومسار رسمه، ورؤى ابتكرها في نتاجاته السردية؛ وحتى الشعرية.. فالذي يهمه في اعماله الأدبية هو الانسان بما يعتمل داخله، وما عليه من الاستعداد لمواجهته. فالانسان عنده محمل بأسئلة تحثه على الجري بوعي عال من أجل ادراك الاجابات التي تقلل من ثقل الاقدار، وتضئل من جبروتها.

"قاتل أبيه" إذا خطاب روائي يضاف إلى روايات الشهيد الاثنتي عشرة، وتدوين ينضم لتدويناته المنشورة التي تجاوزت الخمس والثلاثين، بين الرواية والقصة والشعر والترجمة والنقد الادبي.

منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق
THE UNION OF IRAQI WRITERS PUBLICATIONS